
محمود قاسم
المدينة والفيلم
City and film

المدينة والفيلم

محمود قاسم

الكتاب: المدينة والفيلم

الكاتب: محمود قاسم

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

قاسم ، محمود
المدينة والفيلم / محمود قاسم
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٦٥ ص، ١٨ سم.
الترقيم الدولى: ٣ – ٧٣٥ – ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٧٩٢١ / ٢٠١٨

المدينة والفيلم



مقدمة

المدينة والسينما .. صنوان .

لا يمكن لاحدهما ان ينفصل عن الآخر، وبينهما نقاط تشابه عديدة ، مثل الاتساع ، والتجدد ، والغموض ، وازدحام الحواديت ، والحياة ..

ومع كل صباح جديد ، تستلهم السينما من المدينة قصص افلامها الجديدة

وتستقبل قاعات المدينة المزيد من الأفلام لعرضها على عشاق السينما ، كى يروا في هذه الافلام انعكاسات حقيقية للحياة التى يعيشها الناس ..

وقد دأبت السينما على تصوير المدينة ، وما يحدث فيها ، لدرجة ان السينما هى مدينة لا نهاية لها من الاتساع ، وان المدينة ليست سوى فيلم لا تنتهى احداثه ، في حالة مستمرة ، من العرض ، ولا يعرف التوقف ..

ونحن نتكلم بشكل عام عن الطرفين ، ففي كل فنون السينما في العالم ، لاحظنا مدى العلاقة الجبرية بين الفيلم والمدينة ، فعلى مستوى

الصناعة ،فان السينما لم تزدهر سوى في المدينة ، وقد قامت صناعة السينما في المدن الكبرى، مثل هوليود (لوس انجلوس) ، وباريس ، وروما ، والقاهرة وبكين، ونيودلهى ..

اما عن الموضوعات ، فان المدينة موجودة في القصص ، حتى في السينما الصحراوية ، او الريفية فان هناك رجلا من المدينة يأتى الى هذه الأماكن ، للاقامة المؤقتة او الدائمة هناك ..

لكن ما المقصود بالسينما حسبما نود ان نطرح مفهوم العلاقة .. ؟

إنها بلا شك الصورة التى جاءت عليها المدينة ، ايا كان شكلها في السينما الروائية خاصة في مصر ، بمعنى إلى اى حد صورت الأفلام التى رأيناها ابعاد المدينة،ايا كان شكلها في السينما الروائية خاصة في مصر، بمعنى الى حد صورت الأفلام التى رأيناها ابعاد المدينة ، وحدودها ، وسكانها ، والمؤسسات بها ، وما يعتمل في قاع المدينة ، وفي أركانها المختلفة من أسواق ، وميادين ، ومنتديات ، وغيرها ..

من أعلى، تقترب الكاميرا، كى تصور المدينة بمثابة مجموعة من المبانى المتلاصقة، بعضها شاهق العلو، يعكس هوية المدينة وثراءها ، والبعض الاخر ، مبان واطئة تحضن بعضها البعض الاخر ، أو تتكدس البشر الذين يعيشون في أروقتها .. ولعل أسهل مدخل لفهم هذه العلاقة، هو أسماء الأفلام نفسها ، وعلى المستوى الشخصى يعجبنى كثيرا عنوان فيلم أخرجه وكتبه حسين حلمى المهندس عام ١٩٦١ " تحت سماء

المدينة" وهذا العنوان يختصر الكثير مم نود ان نفسره في هذا الكتاب ، فتحت سماء المدينة تحدث في كل لحظة ، وكل ساعة ، عشرات الحكايات التى تصلح لأن تصنع فيلما ، وتحت هذه السماء هناك البيوتات بما تحمل من أسرار ، وهناك المصانع ، والمقاهى ، والعشش ، والمتاجر ، وقصور الاغنياء و وبنات الليل ، والجرائم التى يتم اكتشافها، او تظل مجهولة ، ويستمر اصحابها دوما في ممارسة كل ما هو ضد شرائع الطبيعة ، والحياة .

المؤلف

المدينة والفيلم .. اتساع بلا حدود

لاشك في أن الرجوع إلى كلمة "مدينة" في عناوين الأفلام يعطى تعبيرا مختصرا عن أشياء كثيرة تدور في هذا المكان المتسع ، ولعل من العناوين المليئة ايضا بالبلاغة ذلك المأخوذ عن احدى اقاصيص يوسف ادريس "قاع المدينة" في الفيلم الذى أخرجه حسام الدين مصطفي عام ١٩٧٤، وهو عنوان ملىء بالبلاغة ، والدلالة أنه يتحدث عن أماكن بعينها في المدينة، وبشر يسكنون هذه الاماكن، والغريب ان الفيلم ليس عن قاع المدينة كمكان، بقدر ما هو عن قاض، من طبقة ارستقراطية يعيش حياة ماجنة، يستجلب إمراة فقيرة للعمل عنده كخادمة، لاتلبث ان تصير عشيقة له..

واذا كان اسم المدينة نفسها نادر في العناوين ، فان اسماء المدن موجودة ايضا لماماً، خاصة العاصمة "القاهرة". فالأسم موجود في العديد من الأفلام قليلة القيمة ، والغريب ان هناك فيلماً بريطانياً تم تصويره في مصر عام ١٩٦٣ ، قامت ببطولته فاتن حمامة ، وكمال الشناوى وجورج ساندرز وريتشارد جوتسون يحمل اسم "القاهرة"، والمدينة بالنسبة لصناع

الفيلم لم تتعد ان تكون المتحف المصرى الذى تجرى سرقته، واماكن الليل .. وقد برز اسم القاهرة على أفيشات افلام قليلة للغاية، وهى أفلام تكاد تكون مجهولة ، مثل "إمراة من القاهرة" ، وهو أول افلام المخرج محمد عبد العزيز في عام ١٩٧٤ . ثم هناك فيلم من انتاج مصر – البحرين باسم "حبى في القاهرة" اخراج عادل صادق عام ١٩٦٦ ، الا ان اهم هذه الاسماء على الاطلاق هو "القاهرة ٣٠" ، كما ان هناك "القاهرة في الليل" لمحمد سالم عام ١٩٤٣ ..

بالاضافة الى أن كافة المناطق القاهرية ، صارت عناويناً للافلام، خاصة في الافلام المأخوذة عن نجيب محفوظ ، او التى كتبها خصيصاً للسينما وهى كلها اسماء لمناطق صغيرة يعيش فيها عدد محدود من البشر مثل "بين القصرين"، و"قصر الشوق"، و "السكرية" ، و"زقاق المدق" و "خان الخليلى" .. كما تجولت عناوين الافلام بين"بنات وسط البلد" و"في شقة مصر الجديدة"، و"باب الحديد" و"فضيحة في الزمالك" و"السكاكينى"، و"درب المهابيل"، و"الدرب الاحمر"، و"فتوات الحسينية" ،و"سوق السلاح"، و"كذلك في الزمالك"، و"شارع محمد على"، و"شارع السد"، و"الشرابية"، و"في محطة مصر"، و"الفحامين"، و"جدعان الحلمية" .. وغيرها ..

هذا بالاضافة الى اسماء مقاه ، ونوادى ليلية ، واماكن يتردد عليها الناس بشكل دائم ، وجماعى والملاحظ من خلال هذه الاسماء ، والعناوين ، ان هناك عدة ملحوظات يمكن ان نوجزها كالتالى :

"اغلب الاماكن العامة ، او الاسماء التى جاءت كعناوين للافلام ، الخاصة بالقاهرة ، باعتبارها المدينة الام و والاكبر ، هى اماكن تخص الفقراء ، او فلنقل إنها موجودة في احياء شعبية و بمعنى ان هناك حالات ملحوظة من التكدس السكانى ومن ناحية ، وايضا ازدحام وتواصل في العلاقات، ففي هذه الأحياء تختلف طبيعة البشر، وعلاقاتهم فيما بينهم ، هم يأتلفون بالمكان ، وتحس كأنما ليس هناك فاصلا بين البنايات، او حتى بين الشقق، ففي بعض الأفلام، تبدو النوافذ والشرفات مفتوحة مع بعضها، لشدة اقتراب الشقق والسكان مثل "هذا هو الحب"، و" السفيرة عزيزة"، و"حياة عازب"، وهى افلام تم انتاجه في فترات متقاربة ..

اما خارج البيوت ، فان حالة "زقاق المدق" تبدو افضل نموذج ملىء بالألفة والتقارب اللذان يجمعا بين الناس ، فالمحلات متجاورة، صالون الحلاقة ، الى محل المعلم كرشة ، وصانع البسبوسة ، والمقهى ، وغيرهم ، يقعون في دائرة ضيقة للغاية ، مما يوحى بروح العائلة ، بل إن الزقاق نفسه اشبه بشقة واسعة ، اقرب الى الربع في احياء القاهرة القديمة ، وفي هذا الفيلم بالذات فان أغلب السكان من القاهرة ، وليسوا من النازحين من خارجها ، والناس هنا يتحابون ويتزاوجون فيما بينهم ، طموحاتهم لا تتعدى حدود المكان ..

وقد تكرر الامر نفسه في أغلب الأفلام التى كتبها نجيب محفوظ، حول جزء في المدينة ، سواء المأخوذة عن رواياته مثل "خان الخليلى"،

و"المطارد"، و"شهد الملكة"، والتى كتبها مباشرة للسينما، ومنها "درب المهابيل"، و"فتوات الحسينية" فالمدينة رغم اتساعها، فإنها تبدو ضيقة بأهلها وسكانه ، والناس في هذه الاماكن من المدينة شبه محكوم عليهم بالاقامة الجبرية ، لا يستطيعون ، ولا يرغبون في الخروج منها ولو مرة واحدة ، فحميدة في "زقاق المدق" التى تستجيب الى فرج بأن تذهب الى منطقة عماد الدين محكوم عليه بالموت ، والا تعود الى سوى جثة هامدة ، محمولة على اعناق عباس الحلو ، والأم في "الثلاثية" طردها زوجها من جنته ، لمجرد خروجها من البيت مرة واحدة ، لزيارة ضريح الحسين ، وفي درب "المهابيل " فان الحلم بالثروة ، والحصول على المال لا يرتبط قط بالخروج من المكان ..

وقد ظلت المدينة دوما سببا لجذب ابنائها ، بمعنى ان المدينة نفسها تجبر ابناءها على البقاء فيها ، حتى لو رحلوا الى الخارج مضطرين، بحثا عن لقمة عيش ، مثلما حدث في "عودة مواطن" لمحمد خان عام ١٩٨٦ .. اى ان المدينة هنا تحولت الى شبه حارة ضيقة ، وزقاق بيوته بمثابة جدران سجن ..

يعنى ان هذه المدينة رغم اتساعها الملحوظ من اعلى ، تظل بمثابة مكان ضيق على سكانها ،لا يخرجون من الأطر الضيقة لهذه المدينة إلا في اقل الحدود ، وتبدو هذه السمة ، فيما أطلقت عليه السينما بافلام الواقعية ، خاصة عند صلاح ابو سيف ، فسوق الجملة في "الفتوة" هو المسكن ، ومكان العمل ، والصراع وسبيل الحياة الوحيد لكل من يعيش

فيه ، وعلى المرء ان يظل هناك في حالتى عمل ومنافسة من اجل البقاء على قيد الحياة ..

وفي بعض افلام هذا المخرج ، فان القادمين الى المدينة، فعلوا ذلك بهدف البحث عن وسيلة للرزق في المستقبل ، فالتعليم الذى جاء من أجله إمام في "شباب امراة" هو وسيلة للرزق في المستقبل ، وايضا لقد جاء مئات من البشر للعمل في سوق الخضار في "الفتوة" ، وكم امتلأت المدينة بامثال هريدى ، وامام في افلام كثيرة ، جاء اغلبه عن طريق القطار ..

وتلعب محطة القطار الرئيسية دورا في التعرف على المدينة ، وقد تعمدت افلام عديدة تصوير كيف كان اللقاء الأول المبهر الذى حدث للقرويين والصعايدة القادمين من قرى صغيرة الى عالم واسع ، ولا تزال هذه الصدمة الممزوجة بالإبهار موجودة لدى ابطال الافلام ، حتى وإن جاؤا من مدن اخرى ، وليس من الريف ..

بدت الدهشة الاولى على وجوه ابطال فيلم "ارزاق يا دنيا" لنادر جلال عام ١٩٨٤ ، فالفتاة التى جاءت لتعمل خادمة بصحبة ابيها ، تبدو عيناها غير قادرتين على استيعاب اتساع المكان الذى تنظر اليه ، اما الشاب صاحب الساق الخشبية ، فبدا مثل غيره ، ممن جاءوا الى المدينة بحثاً عن الرزق ، وعقب تلك النظرات الغامضة الجائعة ، فان المدينة تباينت صورتها ، من عالم وردى ، مليء بمظاهر الربيع ، وجمال

الطبيعة ، وحميمية الصحبة في افلام عديدة مثل "شم النسيم" لفرنيتشيو عام ١٩٥٢ ، و"اميرة حبى انا" لحسن الامام عام ١٩٧٤ ،وغيرهما حيث يذهب الناس لقضاء إجازاتهم في الجناين ، والاماكن الواسعة ، ويعطينا هذا النوع من الأفلام الاحساس ان المدينة مليئة بالخضرة والحدائق ، وعلى كل فهذه الافلام قليلة للغاية ، قياسا الى تلك التصور صورة العنف ، والوحشية في اروقة المدينة ، خاصة جبال المقطم، والمناطق المجاورة ، وصحرائها ، فقد قتلت الراقصة الاولى في منطقة قفر ، تطل على المدينة في فيلم "ابناء وقتلة" لعاطف الطيب عام ١٩٨٧ ، وقامت مجموعة من الشباب باختطاف عروس ، واغتصابها امام عريسها ليلة زفافهما في فيلم "الاوباش" لأحمد فؤاد عام ١٩٨٦، وحول الموضوع نفسه قدم سعيد مرزوق فيلمه "المغتصبون" عام ١٩٨٩، وكانت المدينة بالغة التوحش ، اشبه بأرض تدور عليها معارك عسكرية بين اطراف متطاحنة ، مثل "١٣١ اشغال" لنادر جلال عام ١٩٩٣ ، وفي هذه الافلام وغيرها ، اختلطت دماء الضحايا والقتلة بتراب المدينة ، وهذه الأمثلة المذكورة ، ثم العنف فيها تحت السماء ، ليلا او نهارا ، وليس في الاماكن المغلقة . وقد امتلأت اروقة المدينة باوكار يعيش فيها زعماء عصابات التهريب لا يمكن لشرطة ان تقترب من اوكارهم المفتوحة ، مثلما حدث في "الكيف" لعلى عبد الخالق عام ١٩٨٥ ، فرجل العصابة هنا يمتلك قطعة ارض نيلية ، وهو يستحضر المهندس الذى ابتكر تركيبة المخدرات كيميائيا ، كى يجبره على عمل

التركيبة ، وتبدو الاحداث الدامية على خلفية المدينة التى يطل المنظر عليها ..

وعلى ذكر نهر النيل ، فان هناك رموزا بعينها ، ما ان يظهر احدها، او كلها في فيلم ، فان هذا يعنى المدينة دون غيرها ، مثل بروج المدينة ، وانهارها ، وقلاعها ، وجامعاتها ، والمبانى التجارية ، واماكن العبادة ، والمواصلات ، ولو توقفنا عند القاهرة، كرمز للمدينة الضخمة ، الواسعة ، التى كانت مكانا دائما لمئات الأفلام ، فان نهر النيل الذى يخترق المدينة ، وجسوره العالية ، والاحياء المطلة على جانبيه ، قد صار البطل الرئيسى في افلام عديدة ، منها "العوامة ٧٠" لخيرى بشارة عام ١٩٨٢ ، و "نهر الخوف" لمحمد ابو سيف عام ١٩٨٨ ، حيث تدور الاحداث حول رجل موتور ، يأخذ مركباً نهريا ، ومن عليه من ركاب كرهينة ، ويتحرك المركب النهرى فوق صفحة النيل ، ويرسو احيانا فوق احدى الجزر حيث تتم المفاوضات بين الشرطة ،و الموظف الموتور ، ويكاد يكون الفيلم هو احد الاعمال القليلة التى تدور احداثه بالكامل فوق النهر ، لكن الفيلم المهم بالفعل هو "ثرثرة فوق النيل " ، الذى يدور في عوامة على نهر النيل ، تعيش فوقها مجموعة من الباحثين عن المتعة ، والهروب من الضغوط النفسية ، ورغم أن هناك عوامات عديدة يعيش في داخلها سكان ، واسرات ، فان السينما نظرت الى العوامات باعتبارها مكان للمتعة ، وقضاء وقت ممتع مثلما حدث في فيلم " ليلة ساخنة "لعاطف الطيب ١٩٩٥.. وقد تجول ابطال بعض الأفلام الغنائية فوق سطح النهر ، يغنون للحبيبة ، مثلما فعل عبد الحليم حافظ في "ايام

وليالى" لبركات عام ١٩٥٥ ، وفريد الاطرش في فيلم " قصة حبى" لبركات ايضا عام ١٩٥٥ .. ولا شك ان علاقة الأفلام المصرية بالنهر تحتاج الى دراسة في كتاب متخصص ، فالمكانة التى يتمتع بهل النيل في حياة المصريين قد انعكست في عشرات الافلام ، سواء التى تدور خارج اطار المدينة مثل " صراع في النيل " ، او الأفلام التى تدور في القاهرة باعتبارها المدينة الاكبر ، والاكثر حضورا في السينما ، ومن هذه الافلام ايضا ..

اما البرج الأعلى الذى يطل على المدينة ، فمنذ تاسيسه في عام ١٩٦٠ ،والسينما تحج اليه كثيرا ، بين وقت واخر خاصة في أول أفلام هذه السلسلة مثل "موعد في البرج" لعز الدين ذو الفقار عام ١٩٦٢ ، حيث يبدو البرج شامخاً في افيش الفيلم ، وقد تشعلق عليه بطلاء ، اللذان يتواعدان على اللقاء فوق البرج بعد ستة اشهر، لكن في يوم اللقاء ، تمنع الظروف الطرفين من اللقاء ، ومن الواضح ان السينما قد اعدت احتفالية خاصة بالبرج في هذا الفيلم ، واهمية المبنى هنا انه يطل على المدينة ويمكن مشاهدة القاهرة بمجرد الدوران في مساحة صغيرة باعلى البرج ، وقد حاول المخرج الاستفادة من العلو الشاهق للبرج ، حيث كاد اثنان من افراد عصابة ان يرفعا عادل كى يرميا به من اعلى ..

ورغم حالات انتحار قد حدثت في الواقع من اعلى البرج ، فان السينما لم تهتم بتحويلها الى أفلام ، لكن الجزء الاخير من فيلم " اخر الرجال المحترمين " لسمير سيف عام ١٩٨٠ يدور في اعلى البرج ،

حيث تاتى امرأة خطفت تلميذة ، كى تتنزه مع الطفلة ، والى المكان تاتى الشرطة ، واهل قرية الفتاة ، وتحاول المراة التهديد بالقاء الطفلة من اعلى الى ان قبضوا عليها ، اى ان استخدام التهديد بالقاء شخص هو سمة رئيسية في الافلام التى تصور المدينة من خلال البرج ..

وعلى كلٍ ، فبرج القاهرة ، مكان ضيق ، لعل ظهوره في السينما المصرية ، كان اقل بقليل من ظهور برج ايفل ، الذى صعد الى أعلاه ابطال أفلام عديدة منها "التوربينى" عام ٢٠٠٧ ، وقد اتسم برج القاهرة انه يكشف عن الجانب الحديث من المدينة ، والاحياء الراقية ، فالمرأة التى خطفت التلميذة في " آخر الرجال المحترمين " تسكن الزمالك ، اما القلعة (قلعة صلاح الدين) فإنها كمكان يقع في أعلى المدينة يختلف تماماً عن البرج ، باعتبارها الاقدم ، والاكثر اتساعا وهى تطل مباشرة على احياء مصر القديمة ، وعلى مبانيها الاثرية ، وعلى الفقراء .. وقد بدت القلعة شاهدا على اسرار المدينة اكثر من البرج ، الذى تم بناءه في مكان يخلو تماماً من السكان ، اما القلعة فقد اقام اسفلها ابطال أفلام عديدة منها "اللص والكلاب" لكمال الشيخ عام ١٩٦٢ ، و"شحاتين ونبلاء" لاسماء البكرى عام ١٩٩٠ و "حرامى الورقة" لعلى رضا عام ١٩٧٠ ، و"غرباء" لسعد عرفة عام ١٩٧٠ ، بالإضافة الى الأفلام التاريخية التى اتخذت من القلعة مكانا رئيسيا لها ، خاصة فيلم "وإسلاماه" لاندرو مارثون عام ١٩٦١ ..

بدت القلعة شاهدا على ما يدور في المدينة ، اكثر منها مكانا تدور فيه الاحداث ، ففي الكثير من الأفلام التى دارت احداثها في المنطقة المطلة عليها ، فإن القلعة تبدو في الأفق ،او اقرب من ذلك ، كانها تحفظ الأسرار ، بعد ان تسمعها من اصحابها ..

اما جامعة القاهرة ، فكانت ذات مكانة خاصة لقصص الشباب والطلاب اكثر من اى جامعة اخرى في المدينة ، ولاشك أن ذلك يرجع لعراقة الجامعة ، وللبناء المعمارى ، المتمثل في الساعة ، والقبة، والباب الحديد ، ثم الشارع الممتد امام باب الجامعة ، الى ان يصل المنظر الى تمثال نهضة مصر ، او بالعكس ، وقد بدا مبنى كلية الاداب ، الذى يقع مباشرة الى جوار الباب الرئيسى ، هو الاوفر حظاً في قصص الأفلام لتى صورت المكان ، وذلك باعتبار انه الأوفر حظاً في قصص الأفلام التى المكان ، باعتبار انه الاقدم ، والافضل والاجمل كطراز معمارى ، وايضا لما ارتبط به طلاب الكلية من انفتاح ، وايضا لجمال السلم الطويل ، وقد تم تصوير الكثير من الافلام في كافيتريا الكلية ، واذا كانت المدرجات تعبر عن ازدحام الطلاب ، وعلاقاتهم بالاساتذة ، فان افلاما بعينها قامت في فناء الكلية ، وعلى رأسها "خللى بالك من زوزو" لحسن الامام عام ١٩٧٢ ، و"بنات في الجامعة" لعاطف سالم عام ١٩٧١ ، و "خلف اسوار الجامعة" لنجدى حافظ عام ١٩٨١ ، وذلك بصرف النظر عن القيمة الفنية للفيلم ..

تبدو المدينة في هذه الأفلام صورة ذاهية متحضرة ، فالجامعة ملتقى للشباب في افضل مراحل حياتهم ، جاءوا للتعلم ، ويعيشون هناك قصص الحب الأولى ، وهناك علاقات رومانسية ، او متشابكة ، وهناك ابناء الاغنياء ، والفقراء يلتقون في مكان واحد ، وهناك قصص حب بين تلميذة وأستاذ مثل "الباب المفتوح" لبركات عام ١٩٦٣ ، ونادرا ما راينا هذه الاماكن بصورة سيئة ، فالعيب ليس في المكان ، بقدر ما هو في اشخاص باعينهم ، يصطدمون مع المكان وابنائه ، من خلال طموحات لا حدود لها ، ورغم ان هناك جامعة واحدة ، وعشرات الالوف من المدارس ، فان الجامعة حاضرة في الافلام بقوة ملحوظة ، اكثر قدرة على الحرية، والتصرف ، وهم في الجامعة ، لذا كانت هى البؤرة التى تشكل فيها الطلاب سياسياً وعاطفياً ، وقد ارتبط الغضب ، والتمرد ، والثورة ضد الانظمة السياسية من خلال مظاهرات الطلاب في افلام كثيرة منها "في بيتنا رجل" لبركات عام ١٩٦١ ، و"العاصفة" لخالد يوسف عام ٢٠٠١ ، و"الكرنك" لعلى بدرخان عام ١٩٧٥ ، و"زوجة رجل مهم" لمحمد خان عام ١٩٨٨ ، وغيرها .. اى ان المكان يتحول من الرومانسية والبهجة ، الى الغضب والرفض ، وقد اعتبرت الجامعة بمثابة بؤرة المدينة ، فلا تكاد توجد اسرة في افلام السينما المصرية ، إلا وذهب احد ابنائها الى الجامعة ، وكان له نصيب من الحكى في المكان . بما يعنى تشابك اماكن المدينة ، ولعل ما شاهدناه في "خللى بالك من زوزو" هو خير مثال على ذلك ، فالفتاة زينب لها دور فعال في الاماكن التى تتواجد فيها ، ابتداء من الكلية ، ومدرجاتها ، ثم بيتها ،

والبيوت التى تذهب اليها للرقص بدلاً من امها ، بما يعنى ان الاماكن لا تنعزل ع بعضها في المدينة ، ولعل الاماكن هنا تبدو مفتوحة تفضح الذين يعيشون فيها ، بمعنى ان المدينة المفتوحة تطل بسماتها على اماكن ، والجامعة هى مرآة المدينة ، تتسم بالالوان الزاهية المتعددة ، وبحضور دائم للربيع ، اذ لا يذكر المرء ان هناك مشهدا واحدا للامطار تسقط فوق الجامعة ، وهى مكان مخصص للشباب من الطلاب ، مقابل حضور نادر للبالغين ، خاصة من الاساتذة ، واذا كنا قد اشرنا ان طلاب كلية الاداب هم الاكثر حضورا ، فان طلاب الحقوق يأتون في مرحلة تالية ، ثم دارسو الطب ..

تلعب وسائل المواصلات في المدينة دورا لا يقل اهمية عن الجامعة و ان لم يزد ، فهى الشبكة من المركبات والبشر ، البالغة التعقيد و والصيرورة ، في حالة حركة دائمة ، وتنقل من مكان لآخر ، وهذه الوسائل اشبه بالملابس في الافلام ، حيث إنها مؤشر ملحوظ على التاريخ الذى ينتمى اليه ، ونحن لا نقصد بهذه الوسائل السيارات بالمرة، بل وسائل النقل العام التى يركبها معظم الناس ، من ترام واتوبيس ، وتروللى ، ومترو وقطارات الضواحى ، وكممن قصص عاطفية دارت داخل هذه المركبات وهى تجوب المدينة ، ونحن لم ندخل في إطارها السيارات الخاصة ، باعتبارها ايضا وسيلة نقل عام ، اى ان السائق الواحد قد يلتقى في يومه بالعشرات من الاشخاص الذين يركبون معه ..

فالترام القديم له مذاقه الخاص ، فمجرد ظهوره يعنى العودة الى تاريخ بعينه ، تلكالعربة الواحدة المفتوحة الأبواب ، حيث السائق ، والمحصل ، والناس يصعدون وينزلون ، وقد استخدم الترام كاداة للتعبير عن الغضب الاجتماعى حين اشعل المصريون المظاهرات في فيلم "بين القصرين" لحسن الامام عام ١٩٦٤ ، وايضا في فيلم "معلش يا زهر" لبركات عام ١٩٥٠ ، حيث يعمل سائقاً للترام ، يغنى في بدايته للحب ، والترام وقد ظهر هذا الترام في افلام عديدة من ابرزها "حياة أو موت" لكمال الشيخ عام ١٩٥٤ . فالطفلة التى تذهب لإحضار الدواء لابيها تركب الترام دون ان تكون معها الاجرة ، فيطردها المحصل من الترام ، وتتعرف على صبى في مثل عمرها ياخذها معه كى يدلها على طريق عودة بديل الى الدار .. وهناك ترام مشابه في افلام كثيرة ، لكنها في مدن اخرى ، مثل الترام الذى ركبه الطفل كى يلحق باسرته ، من اجل تدبير مجموعة من الرجال لإنقاذ اخته وصديقتها من براثن "ريا وسكينة" فالأحداث هنا تدور في الاسكندرية ، وفي حى القبارى واللبان بالتحديد..

وكم هى كثيرة ، الافلام التى تدور احداثها في الاتوبيسات ، وهى وسيلة نقل جماعية ، تكشف المعاناة التى يعيشها البسطاء في رحلتى الذهاب والعودة يوميا من والى العمل ، وقد ارتبطت هذه الاتوبيسات بالمقام الاول بالازدحام والتكدس ، واحتكاك الناس بعضهم البعض ، والنشالين وهناك افلام تتحدث عن الحياة الخاصة للعاملين في هذه المواصلات التى تجوب انحاء المدينة ، وقد خصص عاطف الطيب

فيلمه "سواق الاتوبيس" ليعبر عن الحياة الاخرى التى يعيشها واحد من الذين نراهم يوميا ، وقد كساه الفيلم باجواء انسانية ملحوظة .فحسن ابو العلا متزوج من فتاة جامعية ، ويعانى من الظروف الاقتصادية لأبيه ، صاحب الورشة ، والغريب ان حسن لم يترك وظيفته من اجل التفرغ للورشة ، بل انه ايضا سائق تاكسى في اوقاته الاخرى بعيدا عن مهنته الرسمية، وهناك صداقة ، ومودة مع زميله السائق الذى يطلب خطبة اخت حسن ، وسط الظروف الاقتصادية المنهارة ، ويبدو السائق هنا انسانا مثل قرينه في فيلم "٣لصوص" ، ففي اقصوصة "سارق الاوتوبيس" التى اخرجها حسن الامام عام ١٩٦٦ ، فان الاسطى فهمى سائق الشاحنة يحاول العثور على دواء لعلاج زوجته التى اصابتها نوبة قلبية ، وفي الطريق تركب اوتوبيساً ، لكن السائق يتلكأ ، مما يدفع بفهمى الى ان يقود الاوتوبيس ، وان يتجه الى حيث يتم العثور على الدواء ،وتقوم الشرطة بمطاردة الاوتوبيس ...

وفي فيلم "الناس اللى جوه" لجلال الشرقاوى عام ١٩٦٩ ، هناك سائق اوتوبيس تزوج بفتاة صغيرة ، وحبسها في منزله وهو لا يستطيع التوفيق بين حياته الخاصة والمهني ، كما ان فيلم "الكمساريات الفاتنات" لحسن الصيفي عام ١٩٥٧ ، يتحدث عن تجربة جدبدة ، حيث تعمل ثلاث فتيات في مهنة "الكمسارى" وهى مهنة تليق بالرجال ، ولم يحدث ان مارستها امرأة حتى الان في، مصر ، وفي الفيلم يدبر الرجال بعض المقالب من اجل إبعاد الفتيات عن المهنة ، فيتزوجون منهن ، ويطلبون إبقائهن في البيوت ، وهى وجهة نظر تبنتها السينما

والمجتمع بشكل يؤكد نظرية الرجل الشرقى للمرأة ..ومن المواصلات العامة حيث تم تصوير المدينة من الخارج ، الى مصاعدها ، حيث يلتقى غرباء بشكل عابر ، لكن الكثير من القصص تتولد في المصاعد ، باعتبارها مكان مغلق ، قد يستغله شخص لإقامة علاقة ما ، سواء تعطل المصعد ام سار في نهجه بشكل طبيعى ، ونحن نعرف التجربة المهمة لصلاح ابوسيففي "بين السماء والارض"عام ١٩٥٩ ، حيث اجتمع كل هذا العدد المتناقض ، والمتنوع من البشر داخل مكان ضيق للغاية، يمثلون المدينة باغلب طبقاته ، لبعض الوقت، كى يتولد بينهم احتكاك مباشر و لكل منهم ظروفه التى دفعته الى ركوب المصعد ، وقد بدا الاختيار عبقرياً للغاية . كما ان جزءاً من احداث الفيلم يدور في ملعب الكرة ، حيث اشخاص اخرون يلتقون ايضا لاول مرة تحت سماء المدينة، وهناك افلام كثيرة ، تم فيها التعارف بين رجل وامرأة في المصاعد مثل "الثلاثة يحبونها" لمحمود ذو الفقار عام ١٩٦٥ ،و"قص ولزق" لهالة خليل عام ٢٠٠٧ .. وقد تعددت الاماكن التى صورتها السينما من ملامح المدينة ، ابتداء بالمدارس ، والمصانع والشركات و والجسور و والمتنزهات ، والمراكز التجرية ، بالاضافة الى ما تتركه المدينة على ابنائها من ملابس.. والعلاقة بين الفيلم والمدينة تبدو اكثر اتساعاً من المدينة نفسها ، وذلك بتعدد الافلام التى يعيش

من صور شوارعها ، وبيوتها كان صلاح ابوسيف، المخرج نفسه الذى تجول في العديد من احياء الفقراء ، وايضا الاغنياء ، فانه صور هوليوبوليس بجمالها ، ونقائها في فيلمه "الوسادة الخالية" عام ١٩٢٧ ،

وها هو صلاح يتجول في الشارع الرئيسى لمصر الجديدة ، قريبا ، من بيت حبيبته سميحة ، التى تحاول لفت أنظاره من شرفتها ، فتصفر له ، وقد عاد المخرج نفسه في افلامه التالية "لاانام" عام ١٩٥٧ ، و "لاتطفيء الشمس" عام ١٩٦٠ ..

كما ان مصر الجديدة صارت اجمل مكان الذكريات عند مخرجين معاصرين ففي شوارعها ، ومدارسها ، وكنائسها عام ١٩٦٨ عاش ابطال فيلم "ضحك ولعب وجد وحب" لطارق التلمسانى عام ١٩٩٠ ، فأدهم التلميذ الفاشل ، يقع في حب ابنة الليل إش إش التى تطل شرفتها مباشرة على فناء المدرسة ولكل من التلاميذ قصة حب وطموح ، وصراعات ، وتبدو مصر الجديدة في هذه الحقبة نبض للوطن ، وصورة حية من ذكريات المخرج نفسه..

كما شغف داوود عبد السيد ، بهذه المنطقة التى يسكن فيها ، وعبر عن هذا الشغف بقوة في فيلمه "ارض الاحلام" عام ١٩٩٣ ، وفي بداية الفيلم ، فإن نرجس تروى الشجيرة الصغيرة التى تم غرسها في أسفل المنزل الصغير ، ومع مرور السنوات ، زحفت خضرتها واوراقها الى الأدوار والنوافذ ، فصارت شاهدة على الذكريات والأشخاص، وقد سجل الفيلم وقائع الحياة في مصر الجديدة ، التى عاشت فيها نرجس ، واسرتها ، وبدا المخرج شغوفا بشدة بعالم الليل في هذا الجزء الراقى من المدينة ، الذى عاد اليه محمد خان عام ٢٠٠٧ في فيلمه "في شقة مصر الجديدة" مرة أخرى ، وبدت التجربة مختلفة . فالمخرج لم يعش

في المنطقة نفسها مثلما فعل داوود عبد السيد ، كما ان الفتاة نجوى التى جاءت لتبحث عن مدرستها غريبة عن المدينة ، تأتى الى المكان لأول مرة ، وقد بدا الحى بالنسبة لها اقرب الى اليوتوبيا ، ففيه سوق تلتقى بالمدرسة التى تأثرت به كثيرا ..وهى وإن لم تلتق بمدرستها ، فإنها سوف تقابل شابا سيصبح بلا شك هو قرينها ، اى أن مصر الجديدة بالنسبة لها ستكون الحلم ، والذكريات مع أكثر من شخص : المدرسة والشاب يحى ..

ولعل محمد خان ، هو أكثر المخرجين شغفاً بالمدينة ، وشوارعها، وأزقتها ، وأركانها الضغيرة ، وأطلالها ، وسطحها ، ولم يخل فيلم واحد من أفلام المخرج من غزل واضح ومحبة للمدينة ، وقد حرص دوماً على تصوير أفلامه في "أرجاء" المدينة ، وفي الوقت الذى يعانى فيه الكثير من المخرجون في تصوير المدينة من الخارج ، فانه كان استطاع بمهارته ان يتغلب على هذه الصعاب ، بدليل أنه لم يتوقف عن تكرار تصوير المدينة من ارجائها ، وهناك مكان في بداية شارع الجلاء ، يمر عليه كل من يأتى الى المدينة ، وهو عبارة عن ممر ضيق لا يثير انتباه ، صوره محمد خان ، في واحد من أضعف أفلامه ، هو "يوم حار جداً " عام ١٩٥٥ ، تعكس الصورة التى رأينا عليها الممر ، كيف أعاد المخرج ، والمصورين الذين عملوا معه تشكيل هوية المدينة واذا كان هذا قد حدث في واحد من الأفلام الأقل أهمية ، فما بال بقية أعمال المخرج الذى جاءت المدينة في تسمية افلامه "فارس المدينة" عام ١٩٩٢ ، وايضا أماكنها وأحيائها ومنها "بنات وسط البلد" عام ٢٠٠٥ ، و "في

شقة مصر الجديدة" ثم " طائر على الطريق" الذى دارت احداثه بين أكثر من مدينة من الاسكندرية والقاهرة والاسماعيلية ، والطرق التى تربط بينها ..

وقد تواجدت المدينة دوماً في أفلام المخرج ، من الاسكندرية في "الرغبة" عام ١٩٨٠ ،و"دعوة على العشاء " ، و القاهرة في "دائرة الانتقام" عام ١٩٧٧ ، و"ضربة شمس" عام ١٩٨٠ ، و "سوبر ماركت" عام ١٩٩٠ ، و"الحريف" عام ١٩٨٤ و و جزء من " خرج ولم يعد" ، و "زوجة رجل مهم" عام ١٩٨٨ ، وسوف نتوقف عند علاقة المخرج بالمدينة من خلال فيلم " في شقة مصر الجديدة " ..

إنقسم فيلم " في شقة مصر الجديدة " في غالبه الى قسمين ملحوظين ، يدور الأول في الأول في شوارع القاهرة التى يحبها المخرج بطريقة جعلته أفضل من قدم صورة لهذه الشوارع ، مهما كان شكلها الحقيقى كما تراه أعيننا ، اما القسم الثانى ، فهو عبارة عن مجموعة من المسرحيات القصيرة ذات الفصل الواحد ، تعتمد على حوار طويل ممل، به تطويل ملحوظ ، تبدو أننا أمام فيلمين ، الأول ينتمى بحذافيره إلى اسم المخرج واسلوبه المتميز ، والثانى ينتمى إلى كاتبة السيناريو وسام سليمان التى تميل إلى عمل مثل هذه الحوارات الأسرية ، او الحميمة بين ابطال افلامها ، ومنها "أحلى الاوقات" ..

كما ان الفيلم بدا كأنه يصلح ان يحمل عنوانين ، الأول "خارج شقة مصر الجديدة" فقد دارت احداث الفيلم ، في غالبها خارج هذه الشقة ، إبتداء من مدينة المنيا ، ومحطة قطار القاهرة ، وبيت المغتربات ، ومدرسة الجيزويت ، بالإضافة الى وسائل المواصلاتالعديدة التى ركبتها نجوى (غادة عادل) ، وشوارع المدينة ومنها شارع رمسيس ، وشارع منصور .. وغيرها..

بدأ الفيلم بشكل حيوى ملحوظ ، وهو يقدم عالم المدرسة ، وعلاقة نجوى بمدرستها وهى طفلة ، فالمشاهد سريعة ، والموسيقى التصويرية أخاذة ، وحية ، حيث نستمع الى ليلى مراد من خلال محاولة التعرف على تأثير "قلبى دليلى" على جيل بأكمله ، لكن لابد أن ينتابك الإحساس أن محمد خان حاول ان يستجمع شيئاً ما من فيلمه "زوجة رجل مهم" ، إبتداء من اختيار المنيا التى تدور فيها أحداث الجزء الأول من الفيلم ، ثم أثر الأغنيات على بنات صغيرات في المدرسة سوف يكبرن حاملات ذكريات أغنية ليلى مراد التى تعلمها المدرسة تهانى لتلميذاتها ، فذا كانت اغنية "أهواك" هى الأكثر تاثيراً في حياة بطلة فيلم"زوجة رجل مهم" فإن اغنية "قلبى دليلى" صارت هى الحدث الرئيسى في الجزء الاول من الفيلم ، مما يعنى أن هناك مطربة وأغنية وطفلة تنمو الوقت ، لتصبح نجوى شابة ناضجة ، لم تتوقف قط عن مراسلة أستاذتها التى نقلوها من المدرسة عقاباً لها على تعليمها البنات اغنيات عاطفية ...

وليس في الفيلم زمن محدد ، ويمكن ان نحس ان أزمنة متعددة ، تداخلت معاً ، فلو افترضنا ان الأحداث تدور الآن ، في عام ٢٠٠٦ مثلا ، فإن نجوى التى صارت في الثلاثين من عمرها . كانت تلميذة في مدرسة الراهبات بالمنيا عام ١٩٩٠ ، وهو تاريخ لا أعتقد ان اغنية ليلى مراد كانت بهذا التاثير لدى الناس ، كما أن الفيلم يدور ايضاً في العام الذى تم فيه التصوير بدليل ان كاتبة السيناريو لا تعرف أسعار تذاكر الاتوبيسات ، ومن البادى أنها لا تركبها ، كما أن السيناريو نفسه قد اعتمد بقوة على مسألة سطوة الراديو ، وبرنامج ما يطلبه المستمعون الذى يذيع أسم نجوى ، وأستاذتها التى ترسل لها تحية ورداً ، فهذا الابن انتمى أكثر الى الخمسينات والستينات ، أما الآن . فإن هناك اشياء اخرى كثيرة يسمعها الناس في راديوهات وكاسيتات سيارات الأجرة . وليس برنامج ما يطلبه المستمعون الذى أذاع بالذات رسالة ابله تهانى الى تلميذاتها ، مما أكد أنها على قيد الحياة ..

كما ذكرنا ، فنحن أمام فيلمين الأول يدور في أعمال المدينة ، من خلال نجوى التلميذة التى جاءت ، في زمن المحمول ، والتى لا تزال تعتمد على المراسلة على طريقة بطلة رواية "وقائع موت معلن" لماركيز ، التى ارسلت لزوجها الذى هجرها عشرات الرسائل التى تم لفها في "أستيك" ، ونجوى هذه التى تنجح في إصلاح محمول ، فإنها لم تسع حتى لأخذ رقم تليفونه إلا في المشهد الاخير ، وهى تحفظه عن ظهر قلب ..

نجوى هذه جاءت من المنيا ، حيث رأينا النيل ،والمدرسة ، الى القاهرة . عبر قطار ، ومعها زميلاتها في المدرسة ، تعمل مدرسة ، وسوف يقام في مدرسة الجيزويت حفل غنائى ، ونرى تفصيلات الرحلة من خلال القطار ، ونزول المجموعة الى محطة القاهرة لأول مرة ، وتبدو الكاميرا هنا مدهشة ، وهى ترينا أماكن مألوفة بشكل لم نعتده ، ومهما كان اسم المصور ، فانني اعتبرها كاميرا خاصة بالمخرج ، الذى صور لنا المنطقة نفسها في فيلم " يوم حار جدا" .. فأحسسنا اننا نراها بأعين ليست هى العيون المألوفة في وجوهنا ،وذاكرتنا .. فالكاميرا تبدو منبهرة انبهار نجوى نفسها ، وفي هذا المشهد ، وصول المجموعة الى القاهرة، يتأكد لنا ان الفيلم ، بعد ان يتم التخلص من تمثال رمسيس . ثم تبدأ رحلة الفتاة داخل المدينة ..

وامام هذه الرحلة في أدغال القاهرة، رؤية مختلفة ، والإيقاع المدهش ، الحميمى لتصوير المدينة ، فإن السيناريو يحدث مقاطعاً مع الشخصية الرئيسية الاخرى في الفيلم يحى (خالد ابو النجا) ، لنرى تفصيلات حياته في شقة مصر الجديدة التى سوف تقصدها نجوى ، وفي هذه المشاهد تحس أننا نشاهد مسرحيات الفصل الواحد ، بشكل متكرر ، تعتمد على الحوار الطويل ، وعلاقة يحى بزميلته نجوى في العمل داليا ، ونعرف تفاصيل طويلة مملة ، عن هذه العلاقة يمكن إختصارها كثيرا ، فهى مطلقة تؤمن انه "لو تزوجنا، فالأمور التى بينهما سوف تفسد " .. فهى تأتيه الى شقة لقضاء وقت ما ثم تذهب ، وفي ديكور الشقة ، نرى للوحة النمساوية الشهيرة "القبلة" دون ان تعرف هل

تخص أبله تهانى . ام تخص يحى . فهى ثقافة مصرية مهمة تعكس ذوق صاحبها ، خاصة ان يحى الذى يعمل في البورصة .، ليست له اى إهتمامات فنية ، من أى نوع ، هو مجرد موظف لا اكثر ، يرتكب خطأ ، كاد ان يؤثر على مستقبله المهنى ..

لذا ، فإنه امام حيوية دهشة نجوى بوصولها القاهرة ، ومشاهدتها لبعض معالمها ، خاصة عمارة الإيموبيليا التى تسكنها ليلى مراد مع انور وجدى ، فإن المشاهد التى تعبر عن إيقاع حياة يحى ، تبدو رتيبة ، رتابة أفكاره ، حتى وان كانت تأتيه عشيقته الفاتنة داليا ، لتكسر حدة ملله، وليدور بينهما نقاش طويل ، أطول بكثير من علاقتهما في الفراش . وهو محبوس في هذا المكان ، لا يخرج منه إلا للعمل وسوف يستخدم الدراجة البخارية فيما بعد ليخرج الى المدينة مصاحباً نجوى .. حتى الأماكن التى يذهب اليها فهى أماكن مغلقة مثل صالات البلياردو ،تدور فيها حوارات أشخاص يعيشون في رتابة ، حتى وإن كانت العلاقات مع النساء هى هاجسهم..

وأمام بساطة القصة ، فإن الفيلم يحاول إيجاد حوادث اخرى جانبية ، مثل نزول نجوى الى بيت مغتربات ، وهناك تلتقى بقصص ونماذج تصنع قصصاً اضافية في الوقت القصير الذى عليها قضاءه في المدينة ، مثل رضوى التى تنام في الغرفة نفسها ، والتى تنتحر بتناول اقراص دواء بسبب قصة حب فاشلة ، مما يوسع ما يسمى بالزمن الدرامى ، وعلى الجانب الآخر ، فإن الفيلم يضيف شخصية شقيق

صاحب المنزل الذى يسكن به يحى ، والذى يفرد له السيناريو مشاهد طويلة ، أقرب الى الفصل الواحد كى يتحدث عن حبه لتهانى ، ويعود الفيلم الى نجوى كى يضيف قصة اخرى ، كى يجعلها تبقى لأطول فترة بالقاهرة ، حتى تتبلور مشاعرها العاطفية تجاه يحى ، وهى قصة غير متوقعة ، حين يطلب رجل من نجوى ان تبحث عن زوجته في دورة المياه ، وعندما تدخل تكتشف ان الزوجة تلد ، ولا اعتقد ان مثل هذا الحادث يمكن ان يؤخر فتاة عن السفر الى الصعيد ، باعتبار ان اناساً كثيرون قد تولوا هذا الامر ، اى انها لم تكن احدها ، ومن الطبيعى ان تنسحب . لكنها السينما التى يجب ان تكلم لنا هذه القصص كى تعود الى بيتالمغتربات مرة اخرى ، ونشاهد قصصاً اضافية كثيرة.. وقد زاد عدد هذه القصص الجانبية لدرجة ان شقة مصر الجديدة ، قد ابتعدت تماماً عن الاحداث ، وهى التى صورها الفيلم على انها شقة عفاريت ، او ما شابه ، ومن هذه القصص ما يدور في بيت المغتربات ، وهكذا ، فقد بدا الجزء الاول من الفيلم براقاً لامعاً، ثم انطفأت جذوته وسط كل هذه الثرثرة ، والعلاقات المألوفة ، والقصص الروتينية ، فالمتفرج يعرف سلفاً، من خلاله الحدوتة أن قصة حب سوف تنمو في هذه الفترة القصيرة بين يحى ونجوى ، وأن علاقة الاول بزميلته الحسناء المتحررة داليا سوف تنتهى ، مثل الحوار الممل جدا . الذى يدور بين نجوى ويحى في المصعد الذى توقف فجأة، فصنع ما يشبه الفيلم القصير ، او المسرحية ذات الفصل الواحد ، ولعل من شاهد فيلم "الأسانسير" القصير ، وما

حدث به اثناء عطله ، وما حدث في مصعد بيت مصر الجديدة ، يكشف الفارق في حيوية الكتابة والتمييز ..

اما المغامرة الليلية التى قامت بها نجوى مع يحى ، وذهابه معها الى مبنى الإذاعة ، التى يصر المخرج والفيلم أن لهما تأثير حتى الآن في حياة الناس ، فإنها تبدو محاولة جديدة من المخرج للخروج من "حلقة" شقة مصر الجديدة ، وفي مكان هادىء تتحدث نجوى عن سبب رفت أبله تهانى من المدرسة ، وكيف عرفت الحب وهى في الرابعة عشر من عمرها لأول مرة . وأن أغنية قلبى دليلى ، كانت سبباً في اظهار هذا الحب ، ونكتشف فجأة أن هذه الفتاة الصعيدية الثلاثينية ، بدأت تتحدث بجرأة عن مشاعر الحب . وهناك في هذه المشاهد أحاديث بين الطرفين ، في مطاعم ، وكازينوهات ، يجلس يحى على طرف ، وهى أمامه ، وهات يا "رغى" ، قد يكون هذا الرغى صورة من الواقع ، ومحمد خان لا يحتاج الى من يخبره الفرق بين احاديث العشاق حول الموائد في كازينوهات الواقع وكيف يمكن لهذه الاحاديث ، ان تصور في فيلم يحتفل بالمدينة ..

وفي المشاهد الاخيرة ايضا ، بدا كيف أن ابطال الفيلم ينتمون الى الأفلام القديمة ، فلم يفكر اى من الطرفين في أن يأخذ رقم هاتف الآخر لأى سبب من الاسباب ، وقد خان ابو النجا مشهد النهاية مرتين في العام نفسه ، حيث رأيناه ايضا يجرى وراء حبيبته ، ليلحق بالقطار في

فيلم "لعبة الحب" وهاهو يكرر الأمر نفسه في فيلم "زوجة رجل مهم" الى زمن عبد الحليم حافظ ..

مثلما بدئن الحديث ، فالمدينة واسعة اتساع الأفلام ، والسينما تظل تنهل قصصها من المدينة ، وتمتلىء الصالات بالمشاهدين ، من كل الأعمار لتظل السينما دوماً شاهدا كيف كانت صورة المدينة في كل الأزمان ..

صورة العشوائيات في السينما المصرية

هناك فارق واضح بين الأحياء الشعبية التى دأبت السينما المصرية على تقديمها بإفتخار ملحوظ فيما اسمته بالسينما الواقعية ، وبين المناطق العشوائية التى انتشرت في المدن الكبرى، في العقود الاخيرة ، والتى تم النظر اليها على انها أماكن تاوى المهربين ، والخارجين عن القانون ، والقادمين من المناطق نائية في الصعيد ، بحثاً عن الحياة ،فأقاموا مساكنهم بعيدا عن سلطة الحكومة ، وكانت تلك المناطق في الغالب بعيدة عن السيطرة ، فسكنها الإرهابيون ، والمتطرفون ، وآوو إليها ، وعاشوا فيها ، ومن بعد ، جاء الأهالى الباحثين عن السكن ، ايا كان شكله ، فأقاموا وعاشوا بشكل طبيعى الى أن تنبهت السلطات ان عليها أن تتدخل بصورة حاسمة ، لتطوير هذه العشوائيات ، وكى تصير تحت سيطرتها ..

وتعتبر الاحياء الشعبية امتداد ، او تطور للمناطق العشوائية في بعض الاحيان ، فإذا كانت بعض الاحياء الشعبية ، بمنظور السينما المصرية والواقع هى بؤرة المدينة ، والمسكن الاصيل لأهل المدينة ، مثل منطقة الحسين ، في الروايات المأخوذة عن قصص نجيب محفوظ، فإن الكثير من الاحياء الشعبية ، كانت ملتقى الفقراء النازحين من الريف ، وفي هذا يتشابه الطرفان ، اللذان يجمعان بين الفقر ، والاسر الكثيرة

العدد ، وافتقاد التعليم ، والإقامة في مساكن ضيقة ، وتزداد التجمعات السكانية ، البشرية ويزداد الصراع ..

وهناك مناطق تجمع بين العشوائية ، والأحياء الشعبية ، مثل الحى الذى ذهب إمام للإقامة فيه لدى المعلمة شفاعات في فيلم "شباب امرأة" لصلاح ابوسيف عام ١٩٥٦ ..

وقد تباينت الاماكن التى تمثل العشوائيات ، خاصة في السينماالمصرية ، فهى إما احياء بعينها مثل منطقة منشية ناصر التى تم تصوير احداث فيلم "سارق الفرح" بالكامل فيها ، وهناك افلام اخرى تصور "عزبة الصفيح" ، وفيلم "عودة الندلة" الذى يدور في عزبة القرود .. وهناك أفلام عديدة تصور أسفل الكبارى ، حيث يعيش الناس احياناً، او يقيمون الأسواق الثابتة ، او المتحركة ، فيلتقى الناس ببعضهم ويقيمون الحياة ..

اما النوع الثالث من العشوائيات ، فإنه زحف الى اسطح العمارات الفخمة ، في الاحياء الراقية ، حيث توغل الفقراء ، الى فوق الأسطح ، يقيمون العشش ، والغرف الحقيرة ، يسكنون هناك ، في اغلب الاحيان يشكلون قوة خاصة ، لا يستطيع احد التغلب عليهم ، وفي احيان أخرى يقيمون علاقات ما مع سكان العمارة ، وذلك مثلما حدث في فيلمى "السطوح" لحسين عمارة عام ١٩٨٤ ، و "عمارة يعقوبيان" عام ٢٠٠٦..

وسوف نبدأ الحديث عن هذين الفيلمين ، باعتبار ان العشوائية هنا واضحة ، وغريبة ، فالسكان هنا ، لا يتطورون اجتماعياً ، ولا يحلمون بالنزول الى شقق الاثرياء ، بل هم راضين عن ما وصلوا اليه ..

ففي فيلم حسين عمارة ، هناك سطح احد المنازل ، حيث تمكن مجموعة من الفقراء الى الزحف الى بناية في شارع ٢٦ يوليو ، هى بناية فخمة بلا مالك ، هؤلاء الفقراء ، يعيشون في غرف خشبية متلاصقة ، منهم الأرملة نبيلة ، التى تعيش مع طفلها أحمد وتعانى من مضايقات خليل ، ربيب عم أحمد ، الذى يحاول أن يأخذه ليربيه طمعاً في ميراثه ، ويسكن فريد في احدى الحجرات ، اما كرم فهو محصل ورب اسرة ، ورغم حاجته الى المال إلا انه يرفض أن يزوج ابنته للثرى الذى يكبرها بسنوات ويراها تركب سيارة مع شاب ، والفيلم يصور القصص المتداخلة، او المنفصلة ، التى تربط بين سكان السطوح ، فالاطفال يلعبون الكرة الشراب فوق السطح ، وهناك رجل بخيل يخبىء نقوده في شراب يأخذه الأولاد كى يلعبوا به .

ويمتلىء الفيلم بصراخ مزعج للمشاهد ، لكنه يعكس الحياة في هذا النوع من الحياة العشوائية ، فهؤلاء الفقراء يتشاجرون داخل بعضهم البعض ، فالزوج لا يتوانى ان يضرب زوجته وابناءه ، وتثير المشاكل التى يفتعلونها بعض المسئولين في العمارة ، فيصدر قرار بإزالة كل غرف السطح ، وعلى كل منهم ان يبحث عن مسكن جديد ..

والطريف أن حسين عمارة قد صور فيلمه فوق سطح العمارة نفسها ، التى نشرت الصحف قبل ذلك بفترة أنه تم إزالة غرف السطح بها ، ومن الواضح انه استوحى فيلمه من قراءة ما نشرته الصحف عن قرار الإزالة وتنفيذه ..

وقد تكررت الاجواء نفسها في فيلم "عمارة يعقوبيان" إخراج مروان حامد عام ٢٠٠٦ ، لكن الفيلم الذى التزم بالرواية قدم العديد من نماذج الموجودين في العمارة ، ابتداء من البواب وابنه ، الى السكان ، ثم صعد الى السطوح حيث تم التركيز على بثينة ، الحاصلة على مؤهل متوسط ، وتبحث عن اكثر من فرصة عمل ، وتعيش مع أمها التى تدفعها ان تفعل اى شيء مقابل تدبير مال يكفي للصرف على اسرتها ..

والغريب أن الفيلم بدأ من أعلى العمارة ، مثلما جاء في النص الادبى الماخوذ عنه الفيلم ، حيث جاء أنه " مع زهو قوة الانفتاح ، ابتدا الشارع يتغير، وبقت العمارة فرصة سانحة لأى حد معاه فلوس . الآن ، السطح كامل العدد ، الغرفة الواحدة شايلة عيلة بحالها .. البلد كلها اتغيرت " ..

لقد حول سطح العمارة الى منطقة عشوائية ، من الصعب إزالتها ، وقد وصف الكاتب كيف زحف السكان الى أعلى ، التى لا نعرف لها ساكن ، وقصة بثينة تتوازى في الفيلم مع قصة زكى ، ابن الباشا الذى يعاكس النساء ، مما يعرضه للكثير من المواقف المحرجة ، فبثينة هى

ابنة غرفة من غرف السطح ، تسكن مع اسرتها الكثيرة العدد في إحدى الغرف ، ليس هناك عائل للأسرة سوى بثينة ، التى تركت اكثر من وظيفة وضيعة بسبب طمع صاحب المحل فيها ، ولمسها من خلال ملابسها ، وفي حوارها مع الام التى ترى ان سد جوع البطن اهم من شرف ابنتها ، تقول : "كل واحد حر في هدومه يا اختى" . مما يعنى ان الام توافق ان يلمس صاحب العمل جسد ابنتها ، مقابل ان تظل في عملها ، وسوف تقبل الفتاة ان يقوم صاحب العمل الجديد ، وهو رجل بدين ، اعتاد ان يفعل هذا مع كل البنات اللاتى يعملن معه ، مقابل عشر جنيهات ، الواحدةوراء الاخرى ..

هذه هى اخلاقيات سكان العشوائيات ، كما يرى الفيلم ، فبثينة تتمنى ان تصير زوجة لرجل يكبرها بعشرات السنين ، بعد ان رفعت سعرها لدى صاحب المحل ، ورفعت سعر الملامسة الى عشرين جنيهاً..

هذا عن عشوائيات اسطح المنازل الفخمة ، والعمارات ، اما اسطح المدن ، فقد بدت كعشوائيات بالغة الغرابة ، في قذارتها ، وازدحامها ، وقد انعكس ذلك على القصص التى تدور فيها ، فهى قصص عن الخارجين عن القانون ، والارهابيين ، و المجرمين ، ولن نتوقف عند هذا النوع من الأفلام من الناحية التاريخية ولكننا سنتوقف عند نماذج بعينها ، فلاشك ان من أقدم أفلام أحياء العشوائيات ، هو "درب المهابيل" لتوفيق صالح عام ١٩٧٥ . فالمكان قذر وضيق ، والناس يرتدون الاسمال ، ويقومون بتربية الحيوانات في منازلهم ، مثل

الماعز الذى يعيش مع المجذوب ، والذى أخفي الأموال التى كسبها من اليانصيب فوق ظهر الماعز ، واسماء الأشخاص هنا ماخوذة من البيئة ، فالمجذوب يسمى قفة ، والناس هنا إما عاطلة عن العمل ، او أنهم يعملون في وظائف متواضعة ، مثل طه صبى العجلاتى ، وهو احد الطامعين في الاستيلاء على النقود التى كسبه قفة ، كما ان هناك بنت الليل التى تعيش في البيت الذى تعيش فيه الاسر ، وهى تحاول اغواء الرجال ، كى تحقق مكاسب ، وايضا كى تعيش ..

اما سطح المدينة في "آخر الرجال المحترمين" لسمير سيف عام ١٩٨٣، فإن هناك مقالب الزبالة ، حيث تصب قاذورات المدينة ، واسرارها ومخلفاته ، وقد ذهب الى هذه المنطقة المدرس الفرجانى ، الذى جاء مع رحلة مدرسية ، فاختفتتلميذة اختطفتها أرملة ماتت عنها ابنتها . فالمدرس ينتبه عن طريق موظف الفندق الى المعلم برغوث ، زعيم إحدى العصابات لمساعدته ، ورجاله لا يسرقون الأطفال ويتفرغ برغوث للبحث عن الطفلة الضائعة ، وقول ان الزبالين الذين يعملون ويسكنون في اعلى المدينة هم الذين سيحلون المشكلة . لأنهم هم الذين يدخلون كافة بيوت المدينة ..

وقد رأينا هذه المقالب من الزبالة بشكل تفصيلى في الفيلم ، وقد صعد سمير سيف مرةاخرى الى أعلى المدينة في فيلم "سوق المتعة" عام ٢٠٠٠ ، فالبطل أحمد ابو المحاسن ، عقب خروجه من السجن ، يذهب للعيش في أعلى المدينة ، وهناك يعمل في مؤسسات إعداد

وطهى الفول المدمس ، حيث يبدو المكان فقيراً ، رغم ثراء أهله ، خاصة اصحاب المدمسات ، انها مراجل متقدة ، يعيش فيها ابو المحاسن ، إعتاد الطاعة ، وعدم التمرد ، الى ان يأتيه رجل ينتشله من سطح المدينة ، القذر ، الفقير ، كى ينزل الى المدينة ، ويبدو الرجل هنا بمثابة رحم الأم الملتهب الذى يخرج منه الجنين الى الحياة ، حيث يتحدث عن خروج سيدنا آدم من الجنة ، عقب عصيانه ، ويذكره بانه يود دخول الحياة كسوق للمتعة ، ويذكره بشجرة التفاح التى أكل منها آدم وزوجته ..

وابو المحاسن لن يعود قط الى هذا المرجل ، الذى استسلم فيه دون اى تمرد ..

والى سطح المدينة ايضا ، حيث الجبلالباغ القسوة ، والعشوائيات، انتقل داود عبد السيد الى جبل المقطم ، في فيلمه "سارق الفرح" ، فالمدينة ، او المكان ، مبنية على نحو مرتجل ، هشة ، لا اساس لها ، وهى في هذا تعبر عن واقع طنين ، ضعيف ، شديد الفقر ، اشخاصه مستعدون ان يفعلوا اى شيء ، إنهم يتحايلون على الحياة ، بكافة السبل، أغلبهم يعيش يومه بيومه ، ينزلون الى المدينة من اجل الأرزاق في أعمال وضيعة مثل مسح الأحذية ، او النصب ، او بيع الجسد ، إنهم بشر "دون" ..

وفي الفيلم نماذج عديدة من البشر الذين توحدوا مع المكان ، مثل "عم ركبة" القرداتى ، الذى يستعمل نظارة مقربة ، لمشاهدة ماذا يدور في الاماكن من حوله ، وهو رجل يجسد اجواء الهضبة ، يحب فتاة صغيرة تدعى رمانة ، وتبدو المدينة من اعلى شرسة ، عرجاء ، مثل ركبة ، انه يرغب في الطيران ، والتحليق الى حيث المدينة .. ولعل هذا هو الفيلم الأوحد الذى تدور الأحداث بكاملها في منطقة عشوائية ، فلا تكاد تكون هناك بيوت ، فالأبوابلا تمنع من الدخول ، والنوافذ عبارة عن فتحات تسدها ستائر ، والحوائط قصيرة متلاصقة ، والناس يرتدون زى القرية ، باعتبار جذورهم ، عدا الشاب عوض ، بائع المناديل الورقية ، وايضا حبيبته احلام ، وفتاة الليل نوال ، التى تخدع زبائنها كما انها تتعرض لإبتزاز بعض هؤلاء الزبالين الذين تجلبهم الى الخلاء ، وتأخذ منهم المال بمعاونة عوض ..

يعنى هذا ان العشوائيات ، ليست فقط مكانا ، بل هى سلوك ، وتصرف ، فليست هناك بارقة امل واحدة ، وهؤلاء الأشخاص ليسوا من البسطاء الذين اعتدنا على رؤيتهم في الاحياء الشعبية ، بل هم في المقام ألاول من الخارجين على القانون ، وإن حاولت بعض التفاصيل أن تجمعنا نتعاطف مع بعضهم ، مثل قصة الحب التى ربط بين عوض وأحلام ، لكن عوض هو الذى يقطع الطريق على الباحثين عن اللذة ، ويسرق منه أموالهم ..

وقد تجسدت هذه الاخلاق في فيلم "عودة الندلة" عام ٢٠٠٦ ، فالغرابة هنا ليست فقط في الاماكن ، وسلوك السكان ، بل ايضاً في اسماء الاشخاص ، فلا اعرف ماذا تعنى كلمة "جعبل" وهى الشخصية الرئيسية في الفيلم ، إنه لص يعيش في عزبة القرود ، مع زوجته التى تمارس السرقة معه ، وتعاونه ، واثناء عملية السرقة ، فإن جعبل يهرب نافذاً بجلده حين يستشعر الخطر ، ويتخلى عنها ، بالطلاق ، ويتم القبض عليها ، وتودع السجن عشرين عاماً ..

يعنى هذا ان سكان العشوائيات السينمائية على الاقل ، يتسمون بالندالة ، فالزوج جعبل قد استولى على النقود المسروقة ، وتزوج من امراة أخرى ، وصار من اثرياءالقوم . بما يعكس خسته ، أما الأم هذه ، فهى غريبة الاسم "استفتاح" ، ويحاول الفيلم تبيض شكلها ، وسيرتها ، بان يجعلها تحنو على ابنها ، ويلتاع قلبها ، وهى ترى الابن في احضان ام بديلة .. يعنى ان اخلاق الانذال في المقام الأول ..

وقد رأينا العشوائية في افلام اخرى عديدة ، منها "مواطن ومخبر وحرامى" لداود عبد السيد عام ٢٠٠٢ ، فالفتاة "حياة" التى يأتى بها المخبر من إحدى ماطق العشوائيات للعمل في منزل الكاتب لا تلبث أن تصير عشيقة للكاتب ، تسلمه جسدها بسهولة على مائدة القمار ، والرهان ، وهى تقوم بسرقته عند أول بادرة تتاح لها ان تفعل ذلك .. هى لم تسرق النقود فقط ، بل سرقت اشياء عديدة من المنزل ، منها مسودة

الرواية التى كتبها الشاب ، لذا فإن المخبر و يذهب الى منزلها ، ويجرجرها في الشارع ، ويضربها بشراسة لا تعرف الرحمة ..

وفي حياة هذه المرأة أكثر من رجل ، منهم الحرامى ، المسجون ، هذا الحرامى ، هو رجل طيب في عيون المرأة لا تقدر على فراقه ، ولعل هذا هو السبب في انها غادرت بيت المؤلف وسرقته ، وبشكل عام فنحن امام فيلم غرائبى . به اشياء كثيرة غير مفهومة ، لكن ما يهمنا في هذه هى صورة العشوائيات ، فالبيوت التى في هذه المناطق ، ايضا مليئة بالقاذورات، تخلو تقريبا من الأثاث ، ويعيش الناس فيها في ما هو الى الحياة الريفية البدائية .

والناس يتعاملون بالعنف ، وليست للعواطف اى مكان داخل هؤلاء الحقراء ، كما تصورهم الأفلام ، كما انه ليس هناك فرص للتطهر ، مثلما يحدث عادة لدى سكان الاحياء الشعبية في الأفلام التى صورت الكثير من أوجه الحياة هناك ..

وقد بدت هذه الأحياء القائمة في سطح المدينة بصورة واضحة في فيلم "اليوم السادس" ليوسف شاهين عام ١٩٨٦ ، فالعجوز صديقة ، العائدة من جنازة في قريتها بإحدى مناطق شما الصعيد إبان وباء الكوليرا عام ١٩٧٤ ، تسكن فوق ربوة عالية تطل على المدينة ، التى تبدو غبراء ، مليئة بالتراب ، ودخان حرق الموتى ، ودفنهم ، هى امرأة فقيرة تسكن منطقة عشوائية في أعلى المدينة ..

المرض هنا ينخر في المكان ، ربما اكثر من اى مكان آخر بالمدينة ، والتلوث والقذارة تساعد على انتشار المرض ، وزيادة العدوى ، وصديقة ماتت ابنتها منذ فترة قصيرة ، وتركت الحفيد "حسن" كى تربيه الجدة بما يعنى ان هناك صفة جديد موجود في المناطق العشوائية بالاضافة الى كافة الاسباب السابقة ، ألا وهى الحزن الدائم ، والآلام ، وذلك بسبب التوجع ، وهذا الحزن يدفع الى الإحساس بانه لا أمل ، ويجعل بعض الأشخاص يموتون انتحاراً ، مثلما احرق زوج صديقه ، حين أطلق وابور الغاز في غرفته، كى يتحرر من كونه عالة على امرأة ..

وليست هناك بارقة أمل واحدة لدى سكان العشوائيات المنكوبة في هذا الفيلم ، فالأستاذ الإنموذج يصاب بالكوليرا ويموت ، والحفيد حسن يصاب بالكآبة لرحيل استاذه ، ثم يصاب بالعدوى بسبب هيامه في الشوارع المليئة بالعدوى والمرض ..

وقد افرزت العشوائيات في السينما شخصيات عشوائية نالت إعجاب الناس بقوة في السنوات الأخيرة ، وعلى راسها "اللمبى" ، ثم "بوحة" ، و "كركر" ، واول ما يسترعى الإهتمام في شخصية "اللمبى" الذى يعيش في العشوائيات ، هو ذلك القاموس اللغوى الغريب الذى يستخدمه ، وهو قاموس نال إعجاب الناس اياً كانت الطبقات التى ينتمى اليها ..

والرجل العشوائى اللمبى ، يبدو مخمورا دوماً ، او ما شابه ذلك ، يمسك بيده مطواة ، هى لغته في التعامل ، والتواصل مع الناس ، يبدو كأنه فقد انفه عند الكلام ، يرتدى الملابس الغريبة ويتصرف دائما ضد القانون . بما استحق عليه ان يدخل السجن ، بعد مطاردة شرسة مع الشرطة في فيلم "اللى بالى بالك" لوائل احسان عام ٢٠٠٣ ، ثم حاول الهروب أكثر من مرة ، الى أن تمت مطاردة أخرى مع الشرطة ، اصيب فيها مأمور السجن ، وصار على الطب أن ينقل جزء من مخ اللمبى المتيقظ الى جسد المأمور الميت ، فصنعت شخصاً جديداً ، صار عليه أن يعيش في بيت الأثرياء بأخلاق العشوائيات ، وهنا يبدو المفرد اللغوى واضحاً في إختيار أسماء سكان العشوائيات بالمقارنة بأسماء بناء الطبقات الراقية ، فهناك من أصدقاء اللمبى ، الواد الأهتم ، وعلى علوكة، وأشرف كوخة ، مقابل اسم الزوجة فيحاء ، ورياض المنفلوطى ، أما مفردات اللمبى فتأتى اغلبها في أسلوبه بالتلفظ بالحروف ، وإخراجها بشكل مختلف ، اى إعادة ترتيب الحروف على طريقة "شبكة وتكت تكاب" ، المقصود بها "شبكة وكتب كتاب" ، و "التلاوتيتات" ، و "كوباية لومونادو" ، و "توخولف عقلى " ، و "نقل كوليا" ، و "تتعشى" من العشاء بالطبع ، و "علبة بولاك اسود" ، و"زتون كالا طاطا" ، وغيرها، مما يعنى ان للعشوائيات السينمائية لغتها الخاصة التى اخرجتها الينا الأفلام..

وقد سكن الناس العشوائيات في أفلام عديدة ، وبدت الاماكن التى تجمع بين العشوائية والاحياء الشعبية في افلام من طراز "طيور

الظلام"لشريف عرفة عام ١٩٩٤ ، و "أحلام هند وكامليا" لمحمد خان ١٩٨٨ ، و "المتسول" لأحمد السبعاوى عام ١٩٨٤ ، و" خللى الدماغ صاحى" لمحمد ابوسيف عام ٢٠٠١ ، و "الكيف " لعلى عبد الخالق عام ١٩٨٦ ..

وقد زحفت العشوائيات الى المدينة نفسها ، إلى ما تخف المدينة، كما يقال ، الى ما تحت الكبارى ، وإذا كانت بعض الأفلام قد صورت الكبارى مع أنها صارت محلات للزهور في أفلاممثل "القاتلة" لإيناس الدغيدى عام ١٩٩٢ ، و "سواق الهانم" لحسن ابراهيم عام ١٩٩٣ ، إلا أن تحت الكبارى صارت مناطق عشوائية ، يعيش فيها الناس ، ويقيمون حيواتهم ، ينامون ، ويتزاوجون ، ويمارسون اعمالهم ، سواء بالبيع ، أو إصلاح السيارات ..

ولعل ابرز فيلم يعكس هذه الظاهرة هو "عيون لا تنام " إخراج رأفت الميهى عام ١٩٨١ ، والغريب أن المسرحية الامريكية المأخوذ عنها الفيلم المصرى ، تدور احداثها في مزرعة واسعة ، وسط الطبيعة الخلابة ، وهى مسرحية "رغبة تحت شجرة الدرداء" ليوجين اونيل ، أى أن المخرج المصرى قد اختار بيئة مختلفة تماماً ، وهى بيئة شعبية ، جعلت من تحت الكوبرى مكاناً عشوائيا ، مليء ببقايا السيارات المستصلحة ، والزيوت ، والشحوم السوداء ، والعدد ..

تدور الاحداث في منطقة عشوائية حقيقية هى حى بولاق ابو العلا قريباً من ميدان عبد المنعم رياض ، وتمتد حتى أسفل كوبرى ٦ اكتوبر ، حيث أقامت الأسرة ورشة مفتوحة لإصلاح في أوائل الثمانينات ، ولأشخاص هنا يكتسبون أخلاقهم من المكان ، وقذراته ، وارتباك مبانيه وفقره الظاهر ، رغم الثراء الذى يتمتع به الأخ الكبير ابراهيم الذى يعمل في سباكة السيارات ، فهذا الرجل العجوز ، يتزوج من محاسن الفتاة الفقيرة ، ذات الماضى الغامض التى تقبل الزواج من رجل يكبرها في السن كى تستريح من عناء غسيل ملايات المستشفيات ، إنها تعيش بلا أهل . لقد قتل أبوها أمها لأنه عندما ود أن ينام معها يوماً وجد في فمها رائحة البصل ، فسجن الى ان مات في السجن ، وهى تنتقل من غسيل الملايات الى غسيل كل شىء في بيت زوجها العجوز الذى يتسم بشراسة اكتسبها من المكان . وهذا الرجل يضرب اخوته بقسوة لأنهم خرجوا ليلية عرسه بالسيارة ..

لقد أقبلت محاسن على هذا النوع من الحياة بروح راضية ، إلا أنها تفاجىء أن زوجها يضرب أخوته ضرباً مبرحاً لسبب واه ، ويعكس الفيلم اسلوب الحياة في هذه المناطق ، فالأخوة الآخرون يعيشون في إطارمن الموبقات، وسوف تحدث علاقة محرمة بين الأخ الثانى إسماعيل وبين سميحة ، وسوف تحمل تحمل منه سفاحاً ..ولذا ، فإن رأفت الميهى اختار هذا المكان بالذات لتدور فيه أحداث الفيلم ، العشوائية ، وتحت الكوبرى ..

إبراهيم لم يتمكن من رجولته ليلة زفافه ، لذا فإنه ينهال على أخوته ضرباً بقسوة ، مما يؤدى إلى تشتت الأسرة ، وتخاف محاسن من زوجها أن يضربها مثلما فعل مع أخوته ، يعنى هذا ان الناس كلها مغموسة في الخطيئة، وأن وجود امرأة قد زاد حد القسوة ، وجفاف القلب ، فالأخوة، يتربصون بالعروس ، ويرغبون في طردها من الدار ، فلا تتورع محاسن ان تبصقفي وجه إسماعيل ، وان تحدث مواجهة شرسة بين كل الاطراف ..

العشوائية تركت اثرها على من يسكنون ، فيها ، ونحن نعرف أن محاسن سبق ان عشقت زوج اخته ، وضبطها عمها مع ابنه ، أما زوج عمتها فقد جعلها تعمل في شقة مفروشة ، أما إسماعيل فإنه يحاول اغواء زوجة اخيه ..

وأهم ما يجمع الأشخاص ، هو الورشة الموجودة في المنزل ، والتى تطل مباشرة على الورشة المفتوحة اسفل الكوبرى ، لذا فإن محاسن تحاول أن تنفرد بالمكان مع زوجها ، وتسعى الى "تطفيش" اشقاء الزوج خاصة إسماعيل ، الذى سوف تقع معه في الخطيئة ..

وقد امتلأ الفيلم بحوار ، وتصرفات تعكس السلوك الحقيقى لأبناء هذه المناطق ، مثل الكثير من الشتائم المقززة ، والسباب المفتوح ، والبصقات (ثمان بصقات) التى يقذفها الأبطال ضد بعضهم ، فضلا عن اجواء الحقد التى تكمن في سلوك كل الاشخاص تقريبا ، وقد رد القدر

على هؤلاء بأناغرقهم في الآثام ، فالقدر هو الذى يسوق الناس ، وكما قلن فإن هذه المجتمعات التى عاشت فيها محاسن منذ ولادتها مليئة بالزنا بالمحارم ، حتى الصراعات الدامية بين إبراهيم وأخوته الى أن يقتل اسماعيل أخاه ، ويساق الى مستشفي الامراض العقلية ، وسط مشاهد إجهاض يبدو فيها الكوبرى مليئاً بالحركة من الخلفية في هذا المشهد تبدو محاسن في أشدحالات الألم ، راغبة في التخلص من خطيئتها التى لا تود النزول من الرحم بسهولة ..

وفي فيلم "الحريف" لمحمد خان عام ١٩٨٤ ، تحول تحت الكوبرى الى مكان عشوائى من نوع مختلف تماماً ، حيث يلعب الشباب مباريات الكرة الشراب ، ويحضر المراهنون ، إنه مكان غير مخصص لأى نوع من الألعاب ، لكن قانون العشوائيات يفرض نفسه ، وفارس بطل الفيلم ، يسكن في حى فقير ، هو حى شعبى أكثر منه عشوائى ، إنه عامل مهنى في إحدى ورش تصنيع الأحذية ، ماهر في صنعته ، هو محترف في لعبة الكرة الشراب الشعبية ، يمارس بعضا من وقته في العراء، الخواء في الطرق ، حيث الخضرة وعادم السيارات . إنه شغوف دوماً بالحوارى الفقيرة ، والكبارى التى صار ما تحتها عشوائياً ، يجلس في إحدى المقاهى مع زملائه يتبادلون اللعب او الثرثرة ..

وفارس يسكن في غرفة حقيرة ، فوق احد اسطح العمارات القديمة، ويسيطر ، ويكسب منه الكثير ، فكرة الشراب هى السيف الذى يكسب من خلاله ، فارس ، والمشرفون على الرهونات الكثير من

المال، وهو يحمل هذا السيف في حين ، لكنه في اغلب الأحيان يكسر السيف ، ويحطمه ويميل سيف الى اتساع ما تحت الكوبرى في مقابل الغرف الضيقة التى يسكنها ، فهى مظلمة ، قاتمة ، ويبدو هذا الناقض واضحاً للغاية ، لكن على فارس ان يذهب الى المكانين، حبراً وقسراً ..

وقد تحولت مناطق تحت الكبارى إلى مسكن لإطفال الشوارع في أفلام عديدة ، مثلما تحولت العشوائيات ، حيث أنها بعيد عن أنظار رجال الشرطة ، ورجال الأمن ، وقد عاش هناك الأطفال المشردين في أفلام منها "بص شوف سكر بتعمل إيه" لأشرف فهمى عام ١٩٧٧ ، فالطفلة فتاة يتيمة تقع فريسة عصابة ، خطف الأطفال ، التى تدربهم على مهن مختلفة منها التسول والنشل من خلال مجموعة من الأشرار ترأسهم زكية وعتريس ، وتمارس سكر أعمال النشل والسرقة ، والتسول تحت الكوبرى باعتباره مكان آمن نهاراً وليلاً ، وقد نظرت السينما الى أولاد الشوارع بشكل تقليدى ، فهم يعيشون وسط تشكيل عصابى ، أى لابد أن تتدخل الشرطة للقبض على العصابة ، وقد تكرر هذا الامر في فيلم "العفاريت" لحسام الدين مصطفي عام ١٩٩٠ ، فهناك عصابة يرأسها شمندى ، الذى يتولى الإتجار في الأطفال ويعيش بين المناطق العشوائية ، ومنها أسفل الكبارى .. وقد حدث الأمر نفسه في فيلم "الجراج" لعلاء كريم عام ١٩٩٥ ، حيث ذهب الأطفال لإستذكار دروسهم فوق الكوبرى ، لأن الحياة العشوائية التى يعيشون فيها ، لا تتيح لهم اقل مكاسب الحياة ، وحقوقها ، الا وهى بقعة ضوء للمعيشة تحتها ..

الوجه السينمائى لمدينة حلوان

تم النظر دوماً الى "حلوان" باعتبارها منطقة نائية ، يتم السفر اليها عبر قطار حلوان القاهرة أوبالعكس ،والذى ، رغم سرعته فإنه يستغرق الرحلة في وقت لا يقل عن ساعة . ولعل تحويل "حلوان" إلى محافظة في الفترة الأخيرة ، قد ساعد في تجسيد وتفخيم هذا المفهوم ، فالكثير من احداث الأفلام المصرية التى تم تصديرها داخل حلوان ، أو في الطريق اليها ، قد دارت في القطارات المتجهة الى حلوان ، أو العائدة منها ، وفي السنوات الأخيرة ، صار المترو بديلاً عن القطارات القديمة إياها .

ومن أجل تقريب مفهوم المسافات في الأفلام ، فيما يختص بالأماكن النائية عن القاهرة ،فإن هناك عبارة رددها أحد الابطال في فيلم "ليلى" الذى أخرجه توجو مزراحى عام ١٩٤٢ ، والذى تدو أحداثه في نهاية القرن التاسع عشر ، حيث قال انه ينوى السفر الى منشية البكرى ، مما يعنى الى حد كانت "منشية البكرى" بمثابة طريق سفر ، فما حال حلوان ..

وهناك أفلام كثيرة ، ذات علاقة مباشرة بحلوان ، وفي سنوات بعينها ، وقبل زمن الازدحام ، كانت حلوان بمثابة حدائقها الجميلة ، التى يذهب الناس اليها للتنزه ، خاصة بعد إنشاء الحديقة اليابانية . اى أن حلوان صارت بالنسبة للناس والسينما ، بمثابة منتجع بعيد عن العاصمة، المليئة بالإزدحام ، والعوادم، والضوضاء فكان البديل هو منطقة نائية.. مليئة بالهواء النقى ، والحدائق ، بعيدة عن العمران ، وقد حدث ذلك في زمن ما قبل الزحف السكانى البشرى الى حلوان ..

دارت أغلب أحداث فيلم "شم النسيم" الذى أخرجه فرنتشيو ، والبطولة جماعية ، في منطقة حلوان ، حيث تتنافس الأسر للذهاب الى هناك ، الى الحدائق في حلوان ، من أجل قضاء أجازة جميلة ، تتخللها قصص حب ، حكايات كوميدية في المقام الأول . وللأسف فإن نسخة الفيلم غير موجودة ، لكن الصور المتوفرة للفيلم ، تصو لنا حلوان ، وقد صارت حديقة خضراء ، تستقبل الزائرين من أجل ان توفر لهم كافة السبل ، لممارسة رومانسيتهم ..

وفي هذه الفترة من الخمسينيات ، ذهاب السينما الى حلوان لتصوير العديد من أغنيات الأفلام ، حتى وإن كانت قصص الأفلام تدور في القاهرة نفسها ، وبدت حلوان اكثر تميزاًلتصوير الأغنيات الاستعراضيات والعاطفية أكثر من الريف ، الذى كان دوماً بمثابة خلفية لمثل هذه المشاهد الاستعراضية ، لدرجة أن فيلم بأكمله تم تصويره في هذه الحدائق هو "مملكة النساء"وهو أحد أفلام اليوتوبيا ، حيث تعيش

النساء بعيداً عن الرجال ، والفيلم من إخراج احسان فرغل عام ١٩٥٥ . وقد اختار المخرج حدائق مدينة حلوان لتصوير احداث الفيلم ، باعتبار أن المكان يخلو من الرجال وأنه اشبه بحلم جميل ، من الخضرة والمثالية ...

ومع تقدم الزمن ، وتطوير الحديقة الدولية ، صارت حلوان أكثر جاذبية للفنانين من أجل تصوير مشاهد بعينها من الأفلام ، لم يكن ينظر الى المكان ، سينمائياً ، باعتبار أنه منطقة سكنية ، يعيش فيها موظفون ، ينتقلون بالقطار يوميا الى المدينة للعمل ، ثم يعودون ، كانت "حلوان" بمثابة منطقة نائية بعيدة عن المشاكل ، والمتاعب و شبه مدينة ، او مدينة شبه خاوية ،وذلك اسوة بما حدث بعد ذلك مع مدينة أكتوبر في بداياتها ، حيث تحولت الى استديو مفتوح واسع .

ومن اشهر الافلام في تلك المرحلة ، تلك الرحلة التى قام بها زملاء إحدى الشركات في فيلم "أميرة حبى أنا" إخراج حسن الامام عام ١٩٧٥ ، حيث نجحت اميرة في إقناع زملائها بعمل رحلة الى خارج مبنى المؤسسة ، وذهب الكثيرون من الموظفين معاً الى حلوان ، وبدت تماثيل الحديقة اليابانية ، وسعاد حسنى تغنى "الدنيا ربيع" وبدت حدائق المدينة كأنها تنفس حدائق القناطر في جمالها ورونقها .. وقد عاش الزملاء ساعات مبهجة ، بعيداً عن روتين الوظيفة ، وبات علاقة اميرة الموظفة ، تتبلور مع زميلها نائبرئيس مجلس الادارة ، وهو يرقبها ، ثم يلاعبها لعبة "الرست" .. وهى التى سوف تصير له زوجة فيما بعد .

اذن ، كانت حلوان في البداية بمثابة ديكور اخضر جميل للأفلام ، ثم جاء محمد خان ليقدم فيلمه الروائى الأول"ضربة شمس" حيث دارت الاحداث بين مدينتى حلوان ، والقاهرة وفي القطار ، الفيلم يعتمد في المقام الاول على مواجهة بين عصابة دولية ، ومصور صحفي ، نجح في التقاط صور تدين هذه العصاة ، وتكشف انشطتها الإجرامية ، فراحت تطارده بين شوارع حلوان ، والقاهرة ، وايضاً فوق الطريق المؤدى من حلوان الى المدينة ، وايضاً في داخل القطارات ، وقد اهتم محمد خان كعادته فيما بعد ، باتساع الطرق ، ومنظر الافق ، ورغم ان حلوان في تلك الفترة من نهاية السبيعنات كانت قد بات تشهد اولى مراحل الزحام الذى عرف فيما بعد الا ان المخرج قدم المدينة شبه نموذجية ، وكشف المناظر الخاصة بالمدينة مع ما تتمتع بها من اتساع افق وجمال ، ولعل هذا الفيلم ، هو من اوائل الأفلام التى صورت المدينة بدون حدائقها الجميلة التى تزدحم بالرواد فقط في أيام الاجازات والعطلات .

في عام ١٩٧٢ نشر الروائى نهاد شريف روايته الاولى "قاهر الزمن" وباعتبار ان الكاتب من سكان حلوان ، فقد جعل احداث روايته تدور في ما اسماه بصحراء حلوان ، حيث يقع المرصد الرئيسى . وعلى مقربة من هذا المرصد ، يقيم الطبيب الدكتور حليم صبرون تجربه العلمية حول تجميد البشر ، وهو يعيش في فيلا تنام في حضن الجبل ، وقد اقام في باطن الجبل معمله ، الذى به حضانات يمكنه ان يضع فيها جثث الشخصيات التى يقيم عليها تجاربه ، ويلزم بتجميدها لسنوات

بعينها ثم يعيدها مرة اخرى الى الحياة ، عندما يتم اكتشاف سبل علاج للامراض المستعصية التى اصيب بها كل شخص مجمد .

اى ان الكاتب حول حلوان الى مختبر علمى ، باعتبار ان حلوان بعيدة عن الانظار ، خاصة رجال الشرطة ، وقد نظرت الرواية الى حلوان باعتبار انها المكان الامثل لمثل هذه التجارب ، وفي عام ١٩٨٦ ، قام كمال الشيخ بإخراج الرواية ، في فيلم قام ببطولته نور الشريف ، وقد التزم السيناريو الذى كتبه احمد عبد الوهاب بالرواية ، وجعل المكان ايضاً حلوان ، حيث يقيم الدكتور حليم في هذه الفيلا ، ويقيم تجاربه العلمية المتطورة بعيداً عن اعين البشر ، وقد اختار المدينة لانها آمنة ، وبعيدة عن الشبهات ، ولأن في إمكانه ان يقيم هذه التجارب غير المصرح بها في حلوان . وهناك فرق واضح بين حلوان عام ١٩٦٠ ، التى تدور فيه احداث الرواية ، وحلوان ١٩٧٢ ، زمن نشر الرواية ثم حلوان ١٩٨٦ الذى تدور فيه احداث الفيلم .

فلاشك ان حلوان كانت قد ازدحمت كثيراً بالسكان والبشر في ذلك العام ، بعد ان تغيرت خريطة المكان ، والطريق الى حلوان ، خاصة بانشاء مترو الانفاق . الذى سهل المسافات وقربها ، ومع التطور الطبيعى لما يمكن تسميته قانون الازدحام .

وفي عام ٢٠٠٥ عاد محمد خان مرة اخرى الى حلوان ، ومترو حلوان في فيلمه "بنات وسط البلد" حيث ان الصديقتين ياسمين

وجومانة ، تعملان في محلات وسط المدينة ، ولكنهما تقيمان في منطقة المعادى وضواحيها ، وتركبان يوميا قطار المترو في الذهاب والإياب ، وفيه تتعرفان على الشابين سمير وعثمان .. أما حلوان نفسها في الفيلم ، فاليها يذهب الاربعة ذات يوم لزيارة والد سمير ، الذى ود ان يتعرف على الفتاة التى سوف يخطبها ابنه وقد اختار محمد خان من حلوان شالمعاصرة ، ايضاً ركناً رومانسياً هادئاً ، حيث يسكن الاب في شارع هادىء ، من شوارع المدينة ، التى ارت المحاظة باسمها فيما بعد ، وهو يقيم بالدور الارضى ، اى على مقربة من الشارع مباشرة ، فلا ضجيج هناك ، بل إن الحبيبين يقومان بجولة فوق الدراجات على غرار ما كان يحدث في عقود أسبق .. يعنى هذا ان محمد خان قد تزامل مع الجانب الرومانسى الحالم ، والعاشق لمدينة حلوان . وقد شغف بالمكان على طريقته ، ولم يردعه !، إزدحام حدث للمكان كله بشكل عام ..

إذن ، لقد تنوعت صورة حوان في السينما المصرية و فصارت مكاناً للغناء، والمغامرات والقصص الرومانسية ، واصبحت مختبراً علمياً، لكن الغريب انه بعد انشاء المدن الجديدة هناك ، مثل مدينة ١٥ مايو، كانت السينما المصرية المصرية قد ابتعدت كثيرا عن الواقع ، واختارت اماكن سياحية في المقام الاول لتصور فيها الاحداث الرئيسية ، فصارت حلوان ، مثل الريف المصرى ، والاحياء الشعبية مناطق ملغاة من دائرة التصوير السينمائى ..

اسكندرية .. مدينة السينما

سوف تظل للمدن الساحلية جاذبيتها الخاصة ، لدى صناع السينما ، باعتبار أن البحر متوحد مع الأفق ، وتتمتع الإسكندرية بهذه المكانة ، لكنها في المقام الأول مدينة طولية ، تمتد بطول الساحل من ابى قير الى ما بعد العجمى ، وقد ساعدت خريطتها هذه بوجود بحيرة مريوط في الجنوب أن تنقسم المدينة الى قسمين متباينين ، الشمالى منه هو الكورنيش بمن عليه من بشر ، أما الجنوبى ، ففيه يسكن الفقراء ، وتنتشر الاحياء الشعبية ، رغم أنها ليست بعيدة عن الكورنيش ..

وقد خلق الله هذه سمات اجتماعية اتضحت في منظور السينما المصرية للمدينة بشكل ملحوظ ، فقد صارت الإسكندرية بهذه المكانة ، لكنها في المقام الاول مدينة طولية ، تمتد بطول الساحل من ابى قير الى ما بعد العجمى ، وقد ساعدت خريطتها هذه بوجود بحيرة مريوط في الجنوب ان تنقسم المدينة الى قسمين متباينين ، الشمالى منه هو الكورنيش بمن عليه من بشر ، اما الجنوبى ، ففيه يسكن الفقراء ، وتنتشر الأحياء الشعبية ، رغم أنها ليست بعيدة عن الكورنيش ..

وقد خلق الله هذا سمات اجتماعية اتضحت في منظور السينما المصرية للمدينة بشكل ملحوظ ، فقد صارت الإسكندرية بالنسبة للغالبية العظمى من الناس ، هى مدينة الغرباء ، القادمون للسياحة أو للإقامة العابرة ..

الغرباء هنا ، هم القادمون من المدن الأخرى، ابتداء من القاهرة ، جاءوا منها..

يعنى هذا ان الإسكندرية مجرد مدينة ساحلية ، سياحية ، مصنوعة من أجل ابطال أفلام عديدة للاستجمام لا أكثر ، وسوف نرى ان أى أفلام اخرى ، تعاملت مع الجنوب ، ولانستطيع أن نقول العمق ، هى أقل عدداً ، وذلك دون أن نضع في الحسبان جودة الأفلام ..

وعليه ، فهناك ثلاثة اماكن رئيسية ، كانت بمثابة المحور الرئيسى للإسكندرية ، في هذه الأفلام وهى :

- كورنيش المدينة ، او الشاطىء ، وهذه الأفلام بدورها تنقسم الى قسمين ، أفلام تدور احداثها في الشارع الرئيسى للمدينة ، شارع البحر الطويل ، او شارع الكورنيش ، او هو شارع ٢٦ يوليو حسب اسمه المكتوب على اللافتات ، والقسم الثانى تدور أحداثه اسفل هذا الشارع قليلاً ، أى على البلاد مباشرة ، في الشواطىء المتناثرة ، ابتداء من أبى قير ، حتى العجمى فيما سبق ، والآن يصل الأمر الى الساحل الشمالى ، بشواطئه الثرية ..

- ميناء الإسكندرية ، باعتباره نافذة مفتوحة على العالم ، وقد تعاملت السينما مع الميناء ، باعتباره سوق ضخم ، مفتوح للعمل ، والتهريب، وهومجاور لحى العمال ، والعاملين بالجمرك ، ولأنه سوق ، فإن الصراعات فيه تشتد من اجل المال والسلطة ..

- احياء الجنوب ، التى تمتد بشكل طولى ايضاً ، ابتداء من أبى قير ، بمحاذاة السكة الحديد ، وحتى محطة القطار ، مروراً بمحطة سيدى جابر ، ووصولاً إلى أحياء شعبية شهيرة مثل كرموز ، ومنطقة اللبان، والقبارى والمكس ، ثم العجمى ايضاً ..

ولاشك أن هذا الطول الممتد ، قد استبعد مسألة العمق الذى تتسم به المدن الكبرى ، مثل القاهرة ، وصار المكان غالباً سطحياً ، بسيط الديكور ، لا يخرج عن أن يكون شقة مفروشة او فندق يطل على الشاطىء .. مثل "آثار على الرمال" لجمال مدكور عام ١٩٥٤ ، و "البنات والصيف" المأخوذ" عن قصص لإحسان عبد القدوس ، "وسقطت في بحر العسل" لصلاح ابوسيف عام ١٩٧٧ ، و "معاً إلى الابد" إخراج حسن رمزى عام ١٩٦٠ ، و "أبى فوق الشجرة" لحسين كمال عام ١٩٦٩ ، و "معسكر البنات" لخليل شوقى عام ١٩٦٧ ..

وقد ظلت فنادق الإسكندرية الفخمة بمثابة ديكور ايضاً في السينما ، فقد تم تصوير فيلم "عصر الذئاب" لسمير سف عام ١٩٨٦ بعد إنشاء فندق شيراتون المنتزه ، وبدا كأن الفيلم بمثابة دعاية للمكان ومن ناحية اخرى فكم تم تصوير أروقة فندق فلسطين ، والحدائق

المجاورة له .. وقد ظهرت حديقة المنتزه في هذه الأفلام كمكان رائع للقاء العشاق ، وذلك باعتبار الخلفية الساحرة ، للشاطىء والجسر المصنوع من خشب الاشجار ، وقد تكرر ظهور هذا المكان في أفلام عديدة مثل "العاطفة والجسد" لحسن رمزى عام ١٩٧٢ ، و"أقوى من الحب" عام ١٩٥٤ ، و"أبى فوق الشجرة" عام ١٩٦٩ ..

أما عن غرب الإسكندرية ، أو العجمى ، فهو مكان كان له سحره الشديد ، قبل بناء مصايف الساحل الشمالى ، التى إمتدت نحو مرسى مطروح في فترة قياسية ، والغريب أن العجمى لايزال مكاناً سياحياً في منظور السينما ، رغم انه ازدحم بالسكان الزاحفين من الأحياء الشعبية في الواقع ، لكن العجمى صار في منظور السينما بمثابة مصيف متحرر ، يمكن للنساء فيه ارتداء ملابس البحر القطعتين وكم ذهب عشاق إلى الشاليهات هناك لممارسة لحظات حب ، او عاشوا أحسن أيام حياتهم ، ومن هذه الأفلام " العش الهادىء " لعاطف سالم عام ١٩٥٦ ، و " شيء من العذاب " لصلاح ابو سيف عام ١٩٦٠ ، وحتى عجمستا عام عام ٢٠٠٧ ، اما الأفلام التى صورت في اطراف مصر ، حيث الشواطىء العالمية ، مثل شرم الشيخ ،و الغردقة ، ولعل فيلم " الجنتل" لعلى عبد الخالق عام ١٩٨٨ هو أحد أبرز الأفلام التى صورت في "مارينا" ..

المكان الثانى الذى دارت فيه أحداث أغلب أفلام السينما المصرية ، هو منطقة الميناء ، غرب الإسكندرية ، وما يقاربها من أماكن ،

مثل الأنفوشى ، وقلعة قايتباى ، وقاعدة القوات البحرية ، ورغم تقارب هذه الأماكن ، فإن بعض الأفلام تعاملت مع الميناء باعتباره مكان للرزق ، والصراع من أجل لقمة العيش مثل فيلم "صراع في الميناء" ليوسف شاهين عام ١٩٥٥ ، و "حميدو" ، و " رصيف نمرة خمسة" لنيازى مصطفي ، و "ابو أحمد" لحسن رضا عام ١٩٦٠ ، و " الخبز المر" لأشرف فهمى عام ١٩٨٢ ، و "كل هذا الحب" لحسين كمال عام ١٩٨٨ ، " الصعاليك " لداود عبد السيد عام ١٩٨٥ ، وفي بعض هذه الأفلام رأينا الصعود الاجتماعى لصعاليك الميناء ، الذين يصعدون السلم الاجتماعى ، ليكونوا أباطرة السوق ، والميناء ..

وقد تنوعت موضوعات الأفلام التى دارت في هذه الأماكن بالذات ، فهناك أفلام تهريب المخدرات ومنها "حميدو" ، و "رصيف نمرة خمسة" و و"وحوش الميناء" عام ١٩٨٣ ، وهناك الفيلم الغنائى مثل "بنات بحرى" لحسن الصيفي .. وهناك أفلام عن أحوال العمال والعمالة الذين جاءوا من الصعيد هرباً من ظروف اجتماعية ، بحثاً عن لقمة عيش مرتبطة بعمل وزوجاً ، وكدح ملحوظ ، مثل "كل هذا الحب" ، و"الخبز المر" ، و"الصعاليك" ..

وتدور بعض هذه الأماكن في احياء شعبية ، حيث يعيش الناس ، ويحاولون إيجاد لقمة العيش ، فلا شك أن حميدو ، والصول خميس هما من ابناء منطقة الجمرك ، او بحرى ، وهذا الأخير على سبيل المثال له أسرته وحياته الخاصة ، وهو يعمل إلى جوار مكان عمله ،كما أن

إسماعيل يس يسكن ايضاً في منطقة الجمرك في فيلم "إسماعيل يس في الاسطول" ، ويسعى كي يتزوج من ابنة عمه ..

وقد وجدت السينما في هذه المنطقة بالذات مكاناً جيداً لتصوير الأفلام ، فهناك الميناء ، وايضا الصراع من اجل لقمة العيش ، وقد توافقت هذه الأماكن مع المؤمنين والمعجبين بالواقعية ، مثلما فعل يوسف شاهين في افلام عديدة ، خاصة "صراع في الميناء" وقد دار صراع على المناصب والأرزاق بين سكان هذه المنطقة ، في افلام عديدة منها "أبو احمد" ، وايضاً في فيلم "بئر الخيانة" لعلى عبد الخالق ..

وفي المقابل ، فإن منطقة أبو قير ، باعتبارها الطرف الشرقى للمدينة كانت بمثابة المكان المعادل للجمرك ، في أفلام عديدة ، فهناك يعيش بعض الصيادون ، والباحثون عن لقمة عيش ، ولعل هذا المكان هو المعادل لعمق المدينة ، طالما أن المدينة بلا جوف ، وإذا كانت الصحراء الغربية ، أو غرب الاسكندرية قد صارت مكاناً للمهربين مثل " امرأة بلا قيد" لبركات عام ١٩٨٠ ، فإن عز الدين ذو الفقار ، صور منطقة ابى قير في فيلمه "شاطىء الذكريات" عام ١٩٥٤ ، أما الزوجان في فيلم "الرغبة" لعلى بدرخان فقد سكنا على الشاطىء مباشرة في ابى قير عام ٢٠٠١ ..

أما المدينة نفسها ، فقد تباينت درجات ظهورها ، وقد صورها ابناؤها ، وغير الأبناء من الداخل ، ومن خلال بيوتات السكندريين

الحقيقية ، مثلما فعل يوسف شاهين في فيلمه الأول من رباعيته عن الإسكندرية ، وهى ظاهرة تحتاج الى وقفة خاصة حول رؤية المدينة ، أما محمد خان فقد صور منطقة الإبراهيمية ، وأسواقها ، في فيلمه "موعد على العشاء" عام ١٩٨٠ ، وصورت اسماء البكرى الأحياء الشعبية في فيلمها الذى لم يعرض "العنف والسخرية" ، وظهر حى الجمركبمنظور مختلف في سلسلة افلام "بخيت وعديلة" ، حيث يسكن اثنان من أهل المدينة ، وإلى هذه الأحياء الشعبية ، جاء السينمائيون من القاهرة ليصوروا ماذا يحدث مع "ريا وسكينة" ، ورغم أن الكثير من المناظر الخارجية دارت في الإسكندرية ، وفوق كوبرى اللبان ، فعن الديكور الداخلى ، وقسم اللبان ، كان بمثابة ديكور استديو في افلام أخرجها صلاح ابوسيف ، وحمادة عبد الوهاب ، وأحمد فؤاد ..

وقد تحولت محطة سيدى جابر إلى مكان للملتقى للكثير من العشاق ، الذين تمت بينهم قصص حب في أفلام عديدة ، مثل لقاء العاشقين في "شيء في حياتى" لبركات ، والوداع في أفلام كثيرة من طراز "سنوات الحب" لمحمود ذو الفقار ، و"حكايات الثلاث بنات" للمخرج نفسه ..

كما صارت المدينة بمثابة مسكن للبعض ، مثلما رأينا في فيلم "دانتيلا" لإيناس الدغيدى عام ١٩٩٨ .. لكن الفيلم الأهم حيث عبقرية المكان هو "صايع بحر" ، أو هو سكندرى يعرف المكان جيداً وقد صورت منطقة عمود السوارى ، وأطراف كوم الشقافة ، ومقابر العمود

كما لم يصورها أحد من قبل وايضاً ترام حى كرمز ، ولكن الفيلم الأهم حيث عبقرية المكان هو "صايع بحر" ، أو هو سكندرى يعرف المكان جيداًوقد صورت منطقة عمود السوارى ، واطراف كوم الشقافة ، ومقابر العمود كما لم يصورها أحد من قبل وايضاً ترام حى كرموز ، و إذا وددنا إعطاء مثال للمقارنة ، فإن هذه المنطقة تم تصويرها كمكان سياحى في "وفاء إلى الأبد" الذى تدور أحداثه في الإسكندرية ، أما في "صايع بحر" فإن الناس تسكن عند حواف هذا المكان ، ويبدو سوق القماش ، وسوق ما وراء باب عشرى لاول مرة في الأفلام ، وظهر ترام المدينة الاصفر بهذه الصورة ايضاً لاول مرة..

من ناحية اخرى ، فهناك أفلام عديدة حملت اسم الأماكن في المدينة ، مثل "سفاح كرموز" لحسين عمارة عام ١٩٨٧ ، و"بنات بحرى" ، "بلطية بنت بحرى" ، "كوم الشقافة" لإسماعيل حسن ، وهى جميعها افلام تافهة لم تصور عبقرية المكان ، وتختلف في قيمتها من أفلام دارت أحداثها في المناطق الشعبية لمدينة القاهرة ..

لم تتوقف السينما المصرية من الناحية التاريخية ، أى منذ بداية السينما ، عن الذهاب الى الثغر ، لاختيار أفاقه للتصوير ، ففي عام ١٩٢٨ ، كان الفيلم الأول الذى يصدر على شواطىء المدينة ، من خلال "البحر بيضحك" إخراج استيفان روستى ، وفي العام نفسه قدم ابراهيم لاما بعض مناظر فيلمه "فاجعة فوق الهرم" في المدينة ، وقد شجع تصوير الإسكندرية في أفلام عديدة ، وجود استديوهات سينما تم

انشائها في الإسكندرية ، والكثير من هذه الأفلام كانت من إخراج أبناء المدينة أنفسهم ، وعلى رأسهم توجو مزراحى ، صاحب استديو يحمل اسمه في أفلام عديدة منها "الكوكايين" عام ١٩٣٠ ، و "خمسة آلاف وواحد" عام ١٩٣٢ ، و "أولاد مصر" عام ١٩٣٣ ، و " شالوم الترجمان" ، و "البحار" ، و "الدكتور فرحات" عام ١٩٣٥ ،و"العز بهدلة" ، و"الرياضى" عام ١٩٣٧ ، وقد تقلص ظهور الإسكندرية في أفلام المرحلة التالية بعد انتقال الاستديوهات إلى القاهرة ، أو بعد غلق الاستديوهات الموجودة في الثغر .. وسيبقى اسم مزراحى ، ابن المدينة ، كمخرج أكثر شغفاً بالميناء ، يليه يوسف شاهين صاحب رباعية الإسكندرية السينمائية ، والتى ظهرت المدينة في أفلام أخرى له منها "صراع المدينة" ، و"رجل في حياتى" ، والاختيار "عام ١٩٧١ ..

كما أن عز الدين ذو الفقار ذو الفقار صور الكثير من أفلامه في المدينة ، ومنها "قطار الليل" عام ١٩٥٣ ، "وموعد مع الحياة" عام ١٩٥٣ ، و"أقوى من الحب" عام ١٩٥٤ ، و "رقصة الوداع " ، و"موعد مع السعادة" ، و"شاطىء الذكريات" عام ١٩٥٥ ، و"طريق الأمل" ، و"رد قلبى" ، و" امرأة في الطريق" ، و"أغلى من عينيه"..

ومن المخرجين المتميزين ، القاهريين، الذين صوروا المدينة أكثر من مرة ، هناك ايضاً كمال الشيخ ، وعاطف سالم ، وحسام الدين مصطفي ، ومحمود ذو الفقار ، وبركات ، ونيازى مصطفي ، وأحمد ضياء الدين .. وآخرين ..

وحسب القائمة ، فلا تكاد يكون هناك مخرج ، إلا وذهب بأبطاله الى الإسكندرية للاستفادة من اجواء المدينة ، باعتبارها الأقل مكوثاً ، والأكثر سحراً أو فلنقل المدينة السياحية الأولى في مصر ، وفي السنوات الأخيرة تم العثور على بديل سياحى مكثف ، مثلما رأينا فيلم "سهر الليالى" عام ٢٠٠٣ لهانى خليفة ، "صايع بحر" لعلى رجب ، و"حب البنات" لخالد الحجر عام ٢٠٠٤ ، أى أن السينما كانت تبحث عن مكان للسياحة ، فلما وجدته ذهبت إليه .. بدون ان تلتفت للمكان الأسبق ..

بورسعيد

كشفت الأحداث الأخيرة عن أهمية ومكانة وقوة المدن الشرقية الثلاثة في مصر ، التى اكتسبت من خلال شق قناة السويس هذه المدن التى تصاعدت قيمتها في النصف الثانى من القرن العشرين خاصة بعد قيام العدوان الثلاثى مباشرة ..

ولاشك أن المؤشر الذى يعكس مكانة هذه المدن ،وتناميها وصعودها ، والضربات المتعددة التى صوبت إليها أكثر من مرة قد ارتبط بالاحداث السياسية الوطنية التى شهدتها هذه المدن ، ومن خلال ما تعرضت له من حروب قصيرة أو طويلة ، هذا المؤشر يبدو واضحاً في ظهور معالم هذه المدن في الابداع المصرى ، خاصة السينما ، باعتبارها صورة تسجل ما كان يحدث اولاً بأول ..

وسوف نرصد في ثلاث دراسات كيف صورت هذه المدن في السينما ، تصاعد مكانة هذه المدينة باعتبار انه تم النظر إلى بور سعيد في البداية ، من منظور وطنى حربى ، فعندما تذكر ، فهى المدينة الباسلة التى شهدت مقاومة وبطولة في عام ١٩٥٦ ، باعتبار ان هذا العدوان

كان من أهم الأحداث التاريخية التى عرفتها مصر في العقد السادس من القرن الماضى ، وما بعده .

والغريب أننا عندما نتحدث عن وجود هذه المدن في السينما المصرية ، وحكاياتها قبل تأميم قناة السويس ، والعدوان الثلاثى ، فسوف نفاجأ ان السينما لم تتجه إلى هذه الأماكن للتصوير إلا في حدود ضيقة للغاية ، حيث كانت ملكية هذه المدن ، أو حكمها خاضع للإحتلال البريطانى ، الذى كان يعسكر عند اطراف هذه المدن بمعسكراته ، وقد بدا ذلك واضحاً فيلم "كيلو ٩٩" اخراج إبراهيم حلمى ١٩٥٦ بطولة إسماعيل يس ..

لكن ما إن تم تأميم قناة السويس من مبنى البورصة في الإسكندرية حتى صارت مدن القناة ، خاصة بورسعيد محط أنظار العالم كله ، وجاءت القوات المعتدية تهاجم سيناء ، ومدينة بورسعيد ، وما إن انسحبت قوات الغزاة في ٢٣ ديسمبر ومع النصر السياسى حققته مصر، حتى صارت بورسعيد بالغة الأهمية لعمل أفلام كثيرة تعكس البطولات ، هذه الأفلام يتم إنتاجها حتى الآن ..

قبل هذا التاريخ ، كانت سيناء هى محط أنظار السينما من خلال أفلام عن حرب فلسطين مثلما فعل أحمد بدرخان في فيلمه "الإيمان" ١٩٥٢ ، وايضاً باعتبار المنطقة هى منطقة سكنللبدو التى شغفت

السينما بحكى قصص عاطفية ، وبدوية يخرجها نيازى مصطفي لزوجته كوكا ومنها "أرض الابطال" عام **١٩٥٣** .

اذاً ، مع العمليات العسكرية على المدينة ، والمقاومة الباسلة والأحداث الساخنة ، والنصر السياسى وصارت المدينة في بؤرة اهتمام السينمائيين ، الذين صارعليهم أن يغادروا القاهرة والشواطىء الشمالية كأماكن محببة للكاميرا ، ليتجهوا نحو مدن الشرق لتصوير أفلام جديدة في مواقع لم تقترب منها السينما كثيراً ، وفي موضوعات مهمة للغاية ، مرتبطة بشرف الوطن ، وسمعته لدرجة أن فيلماً يحمل اسم المدينة ، عرض يوم الثامن من يوليو عام **١٩٥٧** و وفي اليوم نفسه ، أو قبل ذلك بيوم عرض نيازى مصطفي فيلمه "سجين ابو زعبل" الذى تدور احداثه في مكان قريب للغاية من بورسعيد .

لك أن تتخيل أن عز الدين ذو الفقار ، الظابط السابق قبل أن يكون مخرجاً قد بدأ في إخراج فيلم "بورسعيد" إما اثناء العمليات ، او عقبها فوراً وأن السيناريو كان جاهزاً إما اثناء العمليات او عقبها فوراً ، وأن السيناريو كان جاهزاً للتنفيذ ، ونحن أمام فيلم ضخم الانتاج من انتاج فريد شوقى ، ضم نخبة كبيرة من النجوم ، ومحبوك التنفيذ ، والقصة ، وملىء بقصص الابطال من ابناء بور سعيد أنفسهم ، أطفالاً ورجالاً ونساءً وشيوخاً.

ثم تصوير فيلم بورسعيد داخل المدينة ، وفي ديكورات الاستديو ، وهو فيلم عن مدينة قام ابناؤها بالدفاع عنها ، هو فيلم عائلات ، بمعنى أننا هناك امام اسر تسكن بشكل متجاور ، يقوم افرادها معاً بالدفاع عن المدينة ، معاً ابتداء من طلبة وشقيقه ، وامه ، وقس على ذلك ابناء الحى . والاسرتان اللتان اختارهما المخرج المؤلف ، دفعنا بأثنين من الشهداء في حرب فلسطين ، بما يعنى ان المقاومة البورسعيدية للعدوان تضاف إليها فرصة الانتقام من العدو الاسرائيلى ، كما أن هذا يعطى الإيحاء ان الأسرتين لهما تاريخ من النضال الوطنى .

الأسرة الاولى مكونة من فتحى الظابط البحرى (شكرى سرحان) وشقيقتهوفيه (هدى سلطان) وقد نشا الاثنان بعد أن حرما من عطف الأم، ومن رعاية الاب ، الإ ان الجارة العجوز أم طلبة (زينب صدقى) قد تولت رعاية هذه الاسرة ، طلبة (فريد شوقى) يقوم بتدريب كتائب الحرس الوطنى اثناء العدوان على المدينة ، أما اخوه الطفل مرزوق (سليمان الجندى) فيرتدى ملابس الظباط ويدرب الأطفال ، وينطق بما يعى من مشاعر وطنية ، هاتان الأسرتان تعيشان في هناء ، وضاعف من توثيق الصلات بينهما علاقة الحب التى تربط وفيه وطلبة . وفيه هذه تقف في الشرفة ، وتغنى لجمال عبد الناصر ، تطلب منه أن يؤمم قناة السويس ، وهى فتاة ضريرة .

على جانب آخر ، فإن الفيلم ملىء بالشخصيات ، منها الطبيبة الإنجليزية الأصل ، المصرية النشأة مس بات (ليلى فوزى) وهى تحاول

أنتتقرب الى افراد الشعب وان تغزو قلب فتحى ، فتبوء محاولتها الأولى بالفشل ، وتنجح المحاولة الثانية ثم يقع العدوان الغاشم وتعرف المدينة صفارات الإنذار لاول مرة ، وتشاهد المدينة صراعاً شعبياً عنيفاً ضد العدو ، أنه صراع مليء بالشهامة والبطولة ، فالكل يجود بالروح والدم .. فأغلبهم غير مدرب على الحرب لكنهم ، خاصة الشباب ينضمون الى المقاومة الشعبية ، وويروى الفيلم عن الطابور الخامس داخل المدينة ، متمثلاً في الجواسيس ، منهم بريطانيون ، وايطاليون مثل (شيكو) توفيق الدقن ، حيث يرى الفيلم أن هناك عصابة من الجواسيس يرأسها ويليامز (عز الدين ذو الفقار) تساعده مس بات وتحاول الحصول على معلومات عسكرية ، من خلال أن تلقى بات بشباكها على كل من طلبة ، وفتحى الذى يكشف سر الجواسيس ، فيقوم بالقبض على ويليامز ، وتفر بات الى مكان مجهول يساعدها مورهاوس (أحمد مظهر) على تكملة رسالة الشر ، وإرسال أسرار مصر العسكرية الى لندن ..

وقد امتلأ الفيلم بمشاهد وطنية لاتنسى ، عكس بعض ما فعله ابناء المدينة خلال هذه الفترة الحاسمة من تاريخ مصر ، فصاحبة المقهى (أمينة رزق) تحيل المقهى الى مأوى لمن ضاع منه مسكنه بسقوط الدانات فوق المدينة ونرى أم الجندى الباسل الجاويش محمد ، تعيش مع كل طلقة وتموت مع الطلقة الاخيرة ، كما ان ضابطاً تسقط تسقط صورته من فوق الجدار ، مما يعنى أنه دفع حياته في المجابهة.

ويصور الفيلم كيف تحولت المدينة كلها بسكانه الى مقاوم ، والنيران التى تلتهم الشوارع ، ورجل الدين العجوز الذى يتصدر أمام دبابات العدو التى تجوب المدينة حاملة اليها الموت أو الدماء ، المدينة كلها تمر امامها في عرض مؤثر ..

لقد جاء الفيلم لؤكد ان النصر السياسى الذى حققته مصر كان مدعوماً بالمقاومة الشعبية ، وان ابناء ورسعيد قاوموا المحتل الغازى، وحاربوه بكل ما لديهم من إصرار وقوة ،وأن المدينة دفعت برجالها ليكونوا من الشهداء ، كما شهدت الخونة الذين حاولوا عرقلة مسيرة النصر .

حاول هذا الفيلم أن يعبر عن قوة الحدث ، ونجح في ذلك، ولفت الأنظار إلى المدينة التى بدت كأن ميلادها الحقيقى قد بدأ مع عام ١٩٥٦ ، وان السينما توجهت بالفعل نحو الشرق ، رغم أن السينما المصرية لم تقدم فيلماً واحداً ، بعد ذلك ، بالقوة نفسها ، والجودة عن بورسعيد ، حيث أن العمل اتسم بأنه فيلم حربى سياسى اجتماعى . حيث أن توهج النصر قد دفع مخرجين آخرين للعمل في أفلام دارت احداثها في المدينة في تلك الحقبة ، وكان ابناء المدينة هم ابطال قصص الحب والمقاومة ، ولعل فيلم "حب من نار" لحسن الامام هو المحاولة الثانية للولوج الى المدينة المناضلة ، حيث حشد المخرج نجوماً كباراً رأينا بعضهم في الفيلم الأسبق ، ومنهم شكرى سرحان ، وحسين رياض ، حيث يروى الفيلم قصة بورسعيدية ، حول احمد ومحمد

وهما شابين يتمتعان بالقدرة نفسها من الكفاءات الرياضية ، والخلقية لذا فإنهما يتنافسان على حب الفتاة نجف رشاد ولا تستطيع المفاضلة بينهما، وفي أحداث عام ١٩٥٦ ، يتطوعان في الخدمة العسكرية ، أما الفتاة فتنضم الى صفوف الهلال الاحمر . وعندما يهجم الاعداء على المدينة يقومون بالقبض على ابويها ، واسرتها فتقرر الانتقام ، حيث ترتدى ملابس ابنة ليل ، وتذهب الى البار الذى ينزل فيه الانجليز ، وتحصل على معلومات مهمة تمكن الفدائيين ، من مهاجمتهم . يقوم احمد ومحمد بمهاجمة المعسكر وتصاب نجف اثناء حملة فدائية ، ويتبرع لها كل من الشابين بالدم ، لكنها تموت بينهما ..

أشرنا أن فيلم " سجين أبو زعبل " قد عرض قبل بورسعيد .. وهو من إخراج نيازى مصطفي ، وتاليف وإنتاج محمود المليجى الذى شارك في البطولة ، ونحن هنا في الأساس داخل مدينة بورسعيد ، حيث تعيش اسرة صغيرة ، من أم وابنتها، التى يغرر بها صديق اخيها ، هذا الأخ الذى وجد نفسه مسجوناً في سجن ابو زعبل بتهمة هو برىء منها ، وفي داخل السجن يلتقى بالصديق الذى غرر بأخته ، اذا كانت اغلب الوحدات تدور في سجن ابى زعبل ، الذى دمرته قنابل العدوان ، فهرب المساجين ، فان الجزء الباقى من الفيلم ، يدور في بورسعيد حيث أن الاخ يرجع الى مدينته ، ويشارك مع صديقه الوغد في مقاومة الاحتلال الاجنبى للمدينة ، ويصور الفيلم ما يفعله رجال المقاومة ، وسط الاعتداء الوحشى للطائرات فوق المدينة الباسلة ، وهذا هو السجين الهارب ،

يصير من قوات الدفاع الشعبى ، كما أن الفيلم يكشف أن الأجانب قد قاموا بدور الجواسيس لصالح بلادهم أثناء الحدث ..

عرض فيلم "سجين أبو زعبل" في السابع عشر من يونيه ١٩٥٧.أى قبل أن يعرض فيلم بورسعيد بثلاثة اسابيع . لذا يمكن اعتباره الفيلم الاول الذى صور بورسعيد كمدينة مناضلة ، وهكذا قد حققته عندما انسحبت قوات العدوان في الثالث والعشرين من ديسمبر ، وخرجت بورسعيد باعتبارها مدينة مولودة مع ثورة يوليو ، وصناعها . وذلك باعتبار أن هذه أول حرب تدور في قلب الجبهة المصرية ، وان المواطن هنا دافع عن مدينته ، حيث ان ابطال الأفلام التى صورت بورسعيد هم من ابناء الشعب الفقير الكادح ، هم الذين حاربوا وناضلو، وقاتلوا العدو ودفعوا من أهاليهم الشهداء ..

كما سبق أن تحدثنا ، فإن هذه الأفلام الثلاثة كانت مزدحمة بالنجوم الكبار ، خاصة بورسعيدوقد جاء في الإعلان عن الفيلم المنشور في مجلة الكواكب ٩ يوليو ١٩٥٧ ، إن اللحظات التاريخية التى اجتازها شعب مصر خلال العدوان الثلاثى الغاشم اثبتت للعالم اننا شعب مجيد قاوم بربرية المستعمرين ، وسطر في التاريخ بنصره اروع مواقف البطولة وهو يكافح من أجل القيم الانسانية والحضارة والمستقبل ، ومن أجل أن يسود السلام والحرية والطمأنينة وأكثر ونحن نتوقف عند هذه اللحظات ، للتأكيد على نمائية المدينة الباسلة ، التى جاءت في الاعلان نفسه ، ان فيلم بورسعيد سيقول للعالم المؤمن بحق الانسان أن يعيش

في سلام بأنه رغم ما ارتكبته قوات الاستعمار الغاشم في المدينة الباسلة بورسعيد ، الا انها عاشت لتعلن للعالم ان الحرية ستنتصر في النهاية ..

من المهم الاشارة ان شخصية شيكو كانت من اولى الإشارات أن اليهود في مصر خونة ، وانهم ساعدوا ، العدوان الاسرائيلى ، وقد حاول الفيلم ان يوجد صراعاً سياسياً واجتماعياً داخل المدينة من خلال هذه القصص المتشابكة من البطولات ، والمؤامرات ، وهكذا من خلال الحدث ، ثم الأفلام ، صارت مدينة بورسعيد ، مناضلة ، لها صفحات مشرفة ، دخلت بها التاريخ . وفي الستينات ، بدأت المدينة تأخذ شكلاً مغايراً هما مدينة ساحلية ، تربط بين القناة ، والبحر الابيض المتوسط ، وهناك مبنى ضخم هو لقناة السويس ، وفي أفلام عديدة ، دارت احداث مرتبة داخل المدينة مثل فيلم اشاعة حب عام ١٩٦٠ ، ومثل فيلم "الشياطين الثلاثة" اخراج حسام الدين مصطفي ١٩٦٤ و حيث تبدأ الاحداث ايضاً في سجن أبو زعبل القريب من بورسعيد ، والمساجين حين يخرجون من السجن للإقامة والعمل ، حيث ترى المدينة هنا لأول مرة خالية من الحروب والمجابهات ، لكن هناك مواطن مستغل ، هو المعلم عبد الرازق ، تاجر السمك ، الذى يلعب دور المستغل ، الشباب الثلاثة الذين خرجوا من السجن ، قرروا أن يتوبوا عن الاخطاء السابقة ، وان يمارسوا حياة طبيعية ، وهم سعداوى ، وفتوح وعزب ..

وفي بورسعيد الجديدة هنا ، نرى الحياة الطبيعية لمدينة ساحلية صغيرة ، يبحث كل من الشباب الثلاثة عن مصدر للرزق وسط ظروف اجتماعية تنتمى الى مرحلة التكوين أو التحول . حيث يتعرف الاصدقاء على المعلمة حميدة التى تمتلك مركب صيد وتخضع مثل الصيادين لسيطرة المعلم عبد الرزاق الذى احتكر نقل السمك الى القاهرة .

وتتحرك الأحداث هنا بين بورسعيد والسويس .. وقد كانت بورسعيد بؤرة للسياحة الداخلية في افلام عديدة تم إنتاجها قبل عدوان يونيو ، ومنها فيلم "شاطىء المرح" لحسام الدين مصطفي ايضاً عام ١٩٦٧ ، حيث سيذهب مجموعة من الشباب الجامعى في رحلة جامعية الى بورسعيد وهناك . وتحت سماء المدينة يعيش الشباب لحظات من السعادة ، وتنمو العواطف فيما بينهم ، وسط محاولة من أحد الشباب مراقبة سلوك زميلته بناء على تعليمات من أبيها ، فإذا به يقع في غرامها..

شاهدنا هذا الفيلم في دور العرض ، درجة ثانية ، بعد عدوان ١٩٦٧ ، وكم تألمنا ، ونحن نرى شموخالذى يقف عليه مبنى قناة السويس و وكم انفطر القلب حزناً ، إن المدينة شهدت همزيمة ، وان العدو الاسرائيلى صار عند الضفة الشرقية ، وان قناة السويس قد أغلقت.

وهنا عادت الصورة مختلفة حول بورسعيد والقناة ، وبدت المدينة في أحسن حالات قبل ان يتم تهجير ابناء المدينة إلى مدن أخرى في كل انحاء مصر ، وبدت المدينة في الفيلم الزهو والجمال ، مثل الفتاة نورا المقبلة على الحياة ، وتفتح قلبها للحياة دون أن تعرف ان أباها قد طلب من حسام أن يترقب حركاتها ، حتى لا تكون فريسة لإغراءات الشباب ، وباعتبارنا أمام فيلم شبابى ملىء بالأغانى و البهجة ، فقدت بدت بورسعيد تلبس أحلى زى لها ، والمطربة نجاة تغنى على ضفافها "عل يادى" من الحان محمد عبد الوهاب ..

وطوال سنوات النكسة تغير شكل المدينة و وتم النظر اليها على انها أقرب إلى الكيان الحى المجروح ، فعندما جرحت المدينة ، والمدن الأخرى على ضفاف القناة ، وامتلأت بقوات الدفاع المصرية من طائرات، وأسلحة ، لبست المدينة ثوباً مختلفاً ، مكسواً بزى المحارب المجروح ، وفي أفلام تالية رأينا ابناء المدينة ، وبقية المدن الأخرى وقد تحولوا إلى مهاجرين يعانون من مشاكل إجتماعية جديدة ، لتخرج بورسعيد نفسها من دائرة الاهتمام حتى عاد إليها انور السادات في الخامس من يونيو عام ١٩٧٥ ، وقام بإعادة افتتاح قناة السويس في حفل بحرى مهيب للغاية ، وفي نتلك الفترة أعلن عن تحول بورسعيد الى مدينة مفتوحة اقتصادياً ، وكان الهدف الرئيسى من ذلك أن يتم جذب الأنظار إلى المدينة ، وتشد إليها الكثيرين من ابناء مصر ، بالإضافة الى ابنائها الذين عادوا من المهجر المؤقت ، هنا فقط بدا وجه جديد مختلف للمدينة التى صارت بؤرة لكافة المصريين ، أن يذهبوا إليها

للتبضع ، والشراء ، للأسف فإنالوجه الذى بدا للمدينة في أفلام الثمانينات ، هو الوجه السلبى او وجه المهربين الذىن يسعون لتهريب البضائع بعيداً عن المنافذ الجمركية الرسمية ، وتكاد تكون أغلب الأفلام التى تحدثت عن بورسعيد في هذه المرحلة هى عن ما يفعله المهربون ، والخارجون عن القانون .. في بورسعيد ..

صارت المدينة أقرب إلى المدن الأخرى ، التى يعيش فيها المصريون ، لكن لاشك أن المدينة كانت إدارة رسمية للإنفتاح الذى نظر اليه البعض بشكل سلبى ، فقد جاءت إلى المدينة البضائع الجديدة والمستوردة من كل انحاء العالم ، في فترة كان المصريون يعانون فيها من رداءة البضائع المحلية الصنع ، وقد ذهب الناس في رحلات جماعية أو فردية من أجل إستحضار البضائع إما بهدف الإستخدام أو المتاجرة ، وتفنن البعض في التهرب من الجمارك ، كأن يرتدى مواطن أكثر من قميص بهدف التهرب من دفع الضرائب وما هو أكثر من ذلك ، واعتمدت أفلام كثيرة في تلك المرحلة على قصص المهربين ، في أفلام منها "أهل القمة" لعلى بدرخان ١٩٨٠ ، و"المشبوه" لسمير سيف ١٩٨١ ، و"القط اصله أسد" لحسن ابراهيم ١٩٨٥ ، و"حسن اللول" لنادر جلال ١٩٩٧ ، وغيرها من الأفلام .

في فيلم "أهل القمة" على سبيل المثال ، فإن هناك حملات تهريب كبيرة ، وهروب من الجمارك ، تتم على مستوى عال للغاية ، من خلال اثرياء تلك المرحلة ،بعض هؤلاء الناس ليسوا من ابناء بورسعيد

لكنهم قاموا بنهش الاقتصاد القومى و من خلال تهريب البضائع في مشاحنات ضخمة ، وقد ركزت الكاميرا في هذه الأفلام على أن بورسعيد، هى منفذها التجارى ، أو أنها المنطقة التى تجاور الجمارك و خاصة خارج المدينة ، وعلى الطريق العام تدور مطاردات بين رجال الشرطة ، وبين المهربين ، وترى سبلاً عديدة للتهريب ..

وفي فيلم "القط اصله اسد" مثلما في افلام اخرى تم إنتاجها في الفترة نفسها ، صارت مدينة بورسعيد هى البديل التجارى ، والبحرى لميناء الاسكندرية ، وانعكس ذلك في قصص الأفلام ، حيث توجه المطربون نحو الشرق ، نحو المدينة ، وجاء احد أطرافها (الأم) من القاهرة ، في فيلم "سواق الأتوبيس" لعاطف الطيب ، حين ذهب حسن إلى شقيقتهفي بورسعيد ، لنرى كيف تغير الريف المصرى في تلك الآونة، فالمنزل مليء بالبضائع المستوردة ، التى سوف يتم بيعهابما هو أقرب إلى المخزن ، وابناء هذه الاسرة يعيشون حياة الإستهلاك ، ويستهلكون البضائع المستوردة ، ابتداء من الكانز والمشروبات ، والاطعمة ، بالاضافة الى الملابس ، وقد بدا التحول الاقتصادى على افراد الاسرة جميعاً ،خاصة الأبناء ،الذين يعملون في بيع البضائع وقد تحسنت أحوالهم بشكل ملحوظ .

كما أن هذا حدث في "القط اصله اسد" فالزوج موظف تقليدى ، جاء إلى المدينة من العاصمة ، كما اتى ايضاً بامرأته من هناك ، هذه الزوجة ترى كيف تغيرت الحياة في المدينة ، خاصة صديقتها التى تتردد

عليها ، وهى صاحبة معرض للأزياء فتدفعه لإغراء زوجها ، حتى توقعه في الخطيئة وتتحول من زوجة مطيعة طاعة القط الأعمى ، إلى أسد متوحش ، يطمع في الحصول على أكبر قدر من خيرات المدينة واسواقها الحرة ، فتعمل بالإتجار، وتتطرق إلى التهريب ، تصبح تحت طائلة القانون ..

تم النظر إلى بورسعيد في هذه الفترة باعتبارها مدينة ميسورة ، جذبت إنتباه التجار للذهاب إليها ،إما للإقامة ، أو لجلب البضائع المستوردة ، وايضاً المهربة ، كما أن المدينة كانت منطقة جذب لمثال ماهر ، اللص الخارج من السجن ، الذى يبحث عن لقمة عيش حلال ، دون ان يلتزم بتقديم مسوغات تعيين حول حسن سيره وسلوكه ، فاتجه إلى الإتجار فوق الرصيف شأن الكثيرين من طبقة إجتماعية جديدة عرفتها المدينة في تلك الحقبة ، وقد بدت المدينة هذه بشكل مفتوح ، حيث أن التصوير الداخلى كان محدوداً قياساً إلى المشاهد التى صورت في المدينة ومياهها ، والقناة ، حيث دارت مطاردات بين اللصوص ، وبين ماهر ، بوجود الظابط الذى يكمن بداخله ثأر قديم تجاه ماهر ..

هنا بدأ المنظر يتغير فليس من اللازم ان يكون هناك تهريب بل إننا أمام نموذج من البشر، يبحث عن حياة اسهل ، بدون أى خروج عن القانون ، إنها حياة عادية مثل التى عاشها أبناء المدينة وقد بدا ذلك واضحاً في فيلم "الأنثى" لحسين الوكيل عام ١٩٨٦ ، فالاسرة التى تتكون من أم وثلاثة ابناء ، لم يعملوا في التجارة ، بل هم يمتلكون ورشة نجارة ورثوها عن ابيهم ، وتبدوا المشكلة المطروحة بعيداً تماماً عن

الموضوعات التقليدية التى عولجت في هذه الفترة حول المدينة . حيث أن هناك رجلاً ثرياً يعرض مبلغاًكبيراً لشراء الورشة لتحويلها إلى برج سكنى فوق ارضها ، وعندما يتعذر ذلك فإن الثرى فكرى (صلاح ذو الفقار) يعرض على الابناء أن يشاركوه في مشروعه ، بنصيبهم في الورشة، والقيام بأعمال النجارة (وليس التجارة) ، والموضوع الرئيسى في الفيلم أقرب إلى قابيل وهابيل ، حيث أن سالم ، يتزوج من دلال التى تحب اخاه عطوة ، وبسبب هذا يدور الصراع بين الاخوين ، وهو موضوع شاهدناه تكراراً في هذه الفترة في أفلام دار بعض احداثها في بورسعيد مثل "صابرين" وايضاً فيلم "الحرافيش" لحسام الدين مصطفي .

كانت أعمال كثيرة في هذه الفترة تنتمى ابداعاً إلى ابناء المدينة نفسها ، مثل رواية "ليلة القبض على فاطمة" من تأليف سكينة فؤاد التى سمعناها مسلسل اذاعياً بطولة فاتن حمامة ، ثم تحولت إلى فيلم من إخراج بركات ، وفيما بعد صارت مسلسل تليفزيونى، والفيلم هنا كل ابطاله من المدينة يجمعهم الماضى ، والحاضر معاً ، فالمرأة فاطمة هنا تتذكر المراحل التاريخية لمدينتها من خلال ما ترويه ، وتتذكر ، عم فعله اخوها جلال في المدينة منذ عام ١٩٥٦ ، حتى زمن حوادث الفيلم ، ففيما سبق ، فإن جلال الصبى ، يقوم بتهريب السلاح إلى القوات الأجنبية إبان العدوان الثلاثى ، أنه إنتهاز بما يستغل وقائع كل مرحلة سياسية ، اما فاطمة وحفيدها سيد ، فهما يقومان بمساعدة الفدائيين ، ومع مرور الأزمنة ، صار جلال عضواً في البرلمان ، وصاحب سطوة سياسية مرموقة ، وقد كان جلال دوماً المواطن المواطن الإنتهازى ، الذى

يسعى للإنضمام إلى المؤسسات السياسية الحاكمة ، قبل الاتحاد القومى، والاتحاد الاشتراكى ، وتدور أحداث الفيلم في المدينة ، ونحن نرى أفق بور سعيد أحلى ، حين تمت مطاردة فاطمة للقبض عليها ، وفوق السطح راحت تحكى قصة أخيها الذى اعتنت به وربته ، وبدا المشهد ، كأنما خلفية المدينة شاهدة على ما فعله جلال فيها ، وهكذا تألقت بورسعيد في الواقع ، وعلى الشاشة ، وجذبت المزيد من إهتمام السينمائيين حيث بلغت الظاهرة القمة في فيلم "حسن اللول" إخراج نادر جلال ، وفيه أدى احمد زكى دور الشاب الفقير الذى كان ابوه فدائياً يهرب الاسلحة للفدائيين في مدينة بورسعيد ضد الغزاة الاجانب عام ١٩٥٦ ، والأمر تكرر من الفيلم السابق ولكن بعد اربعين عاماً من الحرب ، يضطر حسن للعمل كمهرب صغير للساعات الصغيرة بإخفائها في وسائد في السيارة التى يقوم هنا بعكس المهام التى كان يقوم بها ابوه..

الاب كان يهرب الأسلحة للفدائيين والابن يهرب البضائع خارج المدينة الذى سرعان ما يصطدم بمفتش الجمرك الجديد ، الذى يعمل بشرف ، ويرفض قبول رشوة ويلتقى الابن بالفتاة فاطيما ، ابنة نموذج تقليدى في السينما والحياة ، لرجل أعمال مصرى ، يقوم بالإتجار في تهريب الهيروين ويستفد بمكانته إلى أن يرشح نفسه بعضوية مجلس الشعب انه واحد من رجال المرحلة الحالية ، يقف بشدة ضد ارتباط ابنته بالمهرب حسن .. الذى يتصالح مع مفتش الجمرك ، ويدافع عنه ، ويأخذه معه إلى حنايا المدينة فنسمع الأهالى يغنون اغنيات مدينتهم فيما

يعرف بالسمسمية ، وتدور اغلب الأحداث في المدينة ، وطرقاتها ، وفي البحيرة المجاورة لها ، وفي العنابر الضخمة التى تخزن فيها البضائع ، وبالطبع في أهم مكان بالمدينة وهو الجمرك الذى يعمل به مصطفي ، حيث يتفنن الكثيرون في تهريب ما لديهم من بضائع ، يصطدمون احياناً مع المفتش ، وفي احيان اخرى يفرون ببضائعهم الصغيرة .

ومع نهاية القرن العشرين ، تغيرت الامور ، واتجهت السينما والحياة شرقاً ، لكن هذه المرة إلى شرم الشيخ ، بعد أن تم تقييد مدينة بورسعيد كمنطقة حرة اقتصادياً ، فانحسرت الاضواء عن المدينة سينمائياً، واقتصادياً ايضاً ، وفقدت رونقها بشكل ملحوظ ، وبدأ المنتجون يتحمسون لعمل أفلام تدور في الشواطىء السياحية ، ، ولم تعد في المدينة الباسلة إلاشكل طريق الحدود ، مثل أحد مشاهد فيلم "العاصفة" لخالد يوسف ٢٠٠١ ، حيث أن رب الاسرة ،كان ايضاً أحد الفدائيين في العدوان الثلاثى .

الاسماعيلية

في ظل الاحداث البالغة السخرية التى تشهدها مدن القناة خلال الشهر الفائت ، وحتى الان ، كنت قد قررت الكتابة حول كيف شاهد الناس هذه المدن في السينما المصرية ، بإعتبار أن الصورة في الفيلم الروائى ، هى ايضاً صورة تسجيلية حقيقية ، فالكاميرا لا تكذب .

وخلال الكتابة اكتشفت أن المدن مثل البشر ، والكائنات بعضها يتألق بقوة ، في الحياة والفنون ، والتواجد ، والبعض الآخر من المدن ، يحب البقاء في دوائر الهدوء ، والظل ينعم بمكانة خاصة في اطار السلم. وأن هذه المدن ، رغم أهميتها ، ومكانتها ، وجمالها، الا أنها ليست هو نفسه الذى تتمتع به المدن المجاورة .

واكتشفت انى ظلمت مدينة بورسعيد ، التى بدأت في إعلان عصيانها العام ، وأنها تستلزم المزيد من الكتابة للتعرف على الأفلام السينمائية الروائية التى دارت أحداثها في المدينة الباسلة ، لأنها بمثابة عين الشمس من خلال تواجدها الواقعى والسينمائى ، حيث أنها في بؤرة

الأحداث دوماً منذ عام ١٩٥٦ ، مروراً بعدوان يونية ، ثم اعادة افتتاح قناة السويس وتحويلها ، منطقة حرة اقتصادياً .

وكان من السهل التأكد أن مدينة السويس تحتاج فصلاً واحداً مطولاً، ولكننى اصبت بالدوار وانا ابدأ بالكتابة عن مكانة مدينة الاسماعيلية في القصص السينمائية ، فالغريب أن هذه المدينة الجميلة التى تطل ايضاً على القناة ولها المكانة نفسها . لم تجذب اليها السينمائيين مثلما فعلت المدينتان الاخريتان . وذلك رغم أنها المدينة الوحيدة التى يقام فيها مهرجان سينمائى سنوى ، خاص بالأفلام التسجيلية ، كما أنها من المدن المصرية القليلة التى يحمل أحد الافلام الشهيرة اسمها ، وهو "اسماعيلية رايح جاى" ١٩٩٧ ، والغريب أن أحداث الفيلم نفسه لا تدور في الاسماعيلية في الوقت الذى تقل فيه عدد المدن التى تطبع اسماؤها على الافلام ومنها الاسكندرية وطنطا وبورسعيد ..

والغريب ايضاً أن بعض الأفلام التى توصلنا الها ، من الصعب ان تدرك أن احداثها دارت في الاسماعيلية ، أو في الصحراء الغربية منها أفلام تدور في صحراء غربية ، المدينة ، كما ان الأفلام التى دارت حول الحروب التى شهدتها مدن القناة ، لم تكن تذكر اسم الاسماعيلية ، حتى وإن دارت هذه الحروب هناك ، فالمعارك لم تعرف التجزئة وابناء المنطقة كانوا بمثابة الدرع الاول في المواجهات العسكرية بعد احتلال سيناء .. فمثلاً لا نستطيع أن نحدد مكان تبادل الجواسيس في فيلم

"اعدام ميت" لعلى عبد الخالق ١٩٨٥ ، فهل حدث في السويس أم الاسماعيلية ، حيث بدت القناة هى المكان الرئيسى بصرف النظر عن المدينة التى تم فيها التبادل .

كما اشرنا في فصل الكتاب عن "بورسعيد" ، فإن هذه المدن ، لم تكن تجرى فيها حوادث الأفلام في النصف الأول من خمسينيات القرن الماضى ، حتى اذا حدث العدوان الثلاثى ، عقب تأميم القناة صارت قناة السويس بجدتها بؤرة افكار المصريين والعرب والعالم و حتى الآن ، وقد تنبه السينمائيون أن هذه المدن الثلاثة موجودة في مصر ، وأنها بمثابة الدرع الأساسى لأن الوطن ، خاصة ان السويس هى اقدم المدن ، ظلت محتفظة باسمها منذ مئات السنوات أما المدن الأخرى ، فحملت اسماء حكام من ابناء وأحفاد محمد على ، ومنهم الخديو سعيد ، والخديو إسماعيل ، والخديو توفيق ، والملك فؤاد ، والغريب أن حكام مصر الذين جاءوا مع ثورة يوليو لم يتمكنوا من تغيير اسماء هذه المدن .. وإن كانوا قد نجحوا في تغيير اسماء الشوارع ، والميادين والمستشفيات ، لكن الإ اسماء المدن ..

وبقيت مدن القناة تحمل اسماء بورسعيد ، بور توفيق، الاسماعيلية، اى أنها مدن جديدة ، تنامت جدرانها على ضفاف القناة ، تستمتع بما تروها ، القناة ، وتتحول إلى اهداف عسكرية حين تندلع الحروب ، ويهاجر ابناء المدينة إلى الدلتا ، وغيرها من بقع مصر ، في زمن الازمات..

الاسماعيلية ، مدينة المانجو ، والبحيرات الجميلة ، والبنايات البيضاء ، والشوارع النظيفة ، التى عاش بها الأجانب ، خاصة الفرنسيون، من أجل تشغيل قناة السويس و التى ولد بها المطرب الفرنسى الراحل كلود فرانسوا ، حين كان ابوه يعمل في قناة السويس و وهو المصرى الذى غنى للاسكندرية ، وليس للإسماعيلية اغنيته الشهيرة "الكسندرى ، الكسندرا" لقد ظل المنظور اليها دوماً على انها منتجع جميل ، يذهب اليه لقضاء وقت ممتع ، مثلما رأينا في فيلم "رحلة غرامية" لمحمود ذو الفقار عام ١٩٥٧ .

وقبل الحديث عن صورة المنطقة المحيطة بالمدينة في الفيلم ، من المهم أن نشير إلىأن الناس والأفلام كانوا ينظرون إلى هذه المدن ، أن الذهاب إليها يتطلب سفراً "حقيقياً" ويمكن معرفة هذا المنظور من خلال جملة يرددها أحد الأشخاص في فيلم "ليلى" لتوجو مزراحى أحداثه تدور في اواخر القرن التاسع عشر إلى انه سوف يسافر الى "الزيتون" فما مكانها من مدن القناة ؟

فيلم "رحلة غرامية" هو أحد الأفلام القليلة التى حاولت سبر اغوار هذه المناطق الجديدة ، البعيدة ، التى تطل على صحراء .. ويذهب الناس إليها على أنها منتجع ، كما ان الفيلم ينظر إلى على انها مدينة صناعية جديدة ، وبها شركات ، ومنهم الشركة البحرية التى تشترط ان يكون العاملون بها من العزاب تبعاً لطبيعة المهنة ، أى ان الزوجات لن يتحملن صعوبة الحياة في هذه المنطقة ، وأغلبها صحراء و ويذهب

حمدى الى الإسماعيلية للعمل في الشركة البحرية التى تعمل في مجال قناة السويس ، وهويعانى سوء حظ ، فزوجته قد سبقته في الحصول على شقة في القاهرة ، ووسط غروره بذكورته ، وأنه المطلوب ، فإنه يقبل العمل بالشركة حتى لا يصير عاطلاً وأن تتولى زوجته مسئولية البيت ..

يعكس هذا كيف كان يتم النظر الى هذه المنطقة في خمسينيات القرن الماضى ، فالعمل في الشركة أقرب الى الحياة في المنفي ، ويحدث أن تذهب الزوجة نادية الى زوجها ، تحت غطاء انها اخته ، وهناك تكتشف ان ليلى ابنة المدير قد وقعت في غرام زوجها ، وأن شقيق ليلى يسعى للزواج منها مما يعقد الامور كثيراً ، حتى يتم الكشف عن الحقيقة ، ويقرر مدير الشركة البحرية استخدام زوجات الموظفين ، وتعيين المتزوجين في الشركة .. مما يعنى أن الفيلم شاهداً على تحول المنطقة إلى حالة إجتماعية مختلفة فلا شك أن هذا يتبعه تكوين الاسر والاستقرار .

وليس في الفيلم الذى كتبه يوسف السباعى أى إشارة الى أسم المنطقة ، ولكننا نرى ، على البعد، سفن تعبر القناة الضيقة ، كما أن المدينة تبدو بعيدة ، وغير مكتملة ، لقد ذهب اليها البعض باعتبارها مكاناً للعمل وايضاً كمنتجع .

وبالصورة نفسها يمكن النظر إلى فيلم "ودعت حبى" ليوسف شاهين عام ١٩٥٦ والذى عرض في سينما ديانا بالقاهرة في اليوم نفسه

الذى حدث فيه العدوان الثلاثى على منطقة القناة ، وهو التاسع والعشرين من أكتوبر ، ويجب ان نعترف أنه من الصعب تحديد المكان في مثل هذه الأفلام ، وأن نقول أن الأحداث تدور في مدينة العباسية ، وكل ما يمكن التأكد منه أننا في مستشفي عسكرى في مدينة نشهد في جنباتها مزروعات ، وقناة وبحيرة ، والأحداث تدور في داخل هذا المستشفي الذى ينزل به العساكر المرضى الذين يقضون اوقاتهم في الصخب والتهريج ، يحل عليهم ضيف مريض جديد ، هو الصول البحرى وحيد الذى نعرف ان أيامه في الحياة معدودة وأغلب أحداث الفيلم تدور داخل المستشفي العسكرى ، ويبدو كأن مدينة الإسماعيلية في هذه السنوات كانت مدينة للأجانب والمرشدين ، وأن المصريين بها كانوا قلة ، ولم تكن تجذب صناع الأفلام ، او أنه لم تكن هناك رغبة في تصوير الأحداث داخل المدينة ، إذ أن المستشفي هو المكان الرئيسى الذى تدور به أحداث الفيلم حول هذا المريض الذى يحاول أن يعيش ايامه الآخيرة حزيناً رغم محاولات التقرب منه.

على كل ، فإنه من السهل استبعاد هذا الفيلم ، خاصة أن اسم المدينة لم يذكر به ، وإن كانت كافة الدلائل ترى أنه يدور في الإسماعيلية ، أو على مقربة منها ، وقد حدث ذلك في أفلام أخرى تم تصويرها بعد سنوات ، منها مشاهد من فيلم "مع الذكريات" لسعد عرفة، وخاصة ذلك المشهد الذى نزلت فيه الممثلة الهام (مريم فخر الدين) في البحيرة . كى تستحم ومن حولها الاشجار والخضرة ، انها البحيرة

الواسعة في الإسماعيلية ، التى تصنع من البحيرة منتجعاً ومصيفاً رأيناه ، فيما بعد في افلام أخرى سنذكرها ومنها "أيام السادات" ، وغيرها ..

احداث فيلم "مع الذكريات" ، تدور في استديوهات السينما ، بإعتبار أن ابطال الفيلم الرئيسيين هم ممثلتان ومخرج ، وعامل اكسسوار ، لكن الأحداث خرجت إلى الاسماعيلية من خلال الممثل شريف الذى أطلق النار على خطيبته وزميلته إلهام ،والفيلم بمثابة عودة إلى ذكريات الماضى ، ففي إحدى الرحلات ، وصل الاثنان إلى الإسماعيلية ، ونزلت الممثلة إلى الإسماعيلية ، ونزلت الممثلة إلى البحيرة كى تستحم وهى عارية ويقف شريف بين الأشجار ، يريد أن يراها وهى تخرج من المياه ، فتمازحه ، وتحذره عدم الأقتراب منها .. وهو يرى كفها العارى ، ثم اذا بها تقفز أعلى سطح الماء ، ليكتشف انها ترتدى مايوه وتنطلق في الضحك

هذا المشهد الجميل ، وسط خضرة تحوط بالبحيرة ، وامرأة جميلة تركت ملابسها أسفل الاشجار ، لايمكن أن أن يصور بهذه الحيوية ، وفي خلفية طبيعة مختلفة سوى في بحيرة الاسماعيلية وذلك ايضاً دون تسمية المدينة ، التى لم نر فيلماً باكمله حتى ذلك التاريخ تدور أحداثه في المدينة ، في الوقت الذى انطلقت الكاميراتتصور مدن القناة الأخرى، خاصة بورسعيد ..

وللأسف الشديد فقد تكرر الأمر مجدداً في فيلم "هارب من الحياة" لعاطف سالم عام ١٩٦٤ ، دون تسمية المدينة ، فكل هذه العمال كانت تبدو كأنها تدور في مدينة اشباح ، ابنائها جاءوا من المحافظات الأخرى ، بحثاً عن عمل ، وفي هذا المنتجع المليء بالأفق وأشجار المانجو والبيوت المنخفضة يعيشون بدون القصص الكبرى التى تدور في الأفلام الاخرى ، مثل التهريب ، والمنافسة على إمتلاك المصائد ، في هذا الفيلم ، دارت قصة حب بين طبيب اسنا وفتاة جميلة تدعى سلوى يتزوج منها وتنجب له طفلاً وهو يعرف أن زميله الدكتور محمود يحبها ثم يرمى الزوج بنفسه في مياه البحيرة دون أن يعثر عليه أحد ، ثم يعود للظهور مرة أخرى بعد سبع سنوات ..

سرعان ما جاءت أفلام الحروب بين اسرائيل ومصر ، ويتم التركيز على مدن القناة ، ابتداء من بورسعيد ثم السويس ، وكانت الإسماعيلية تذكر كلما جاء الحديث عن البطولات المصرية لكنها تأتى في الترتيب الثالث مثلما جاء ترتيبها في القرار الرئاسى بحظر التجول في الاسابيع الماضية ، ومع عودة السلام ، ثم النظر إلى المدينة بإعتبارها المنتجع الذى يعيش فيه اشخاص لهم مشاغلهم الخاصة ، ومن هذه الآفلام .. "انقذوا هذه العائلة" لحسن إبراهيم عام ١٩٧٩ ، و"طائر على الطريق" لمحمد خان عام ١٩٨١ .

تدور الأحداث هنا على الطريق ، خاصة في الفيلم الثانى ، فالسيارة الأجرة التى يعمل فارس قائداً لها ، تنطلق بين القاهرة إلى

الأسكندرية تارة ، ثم إلى طريق الإسماعيلية ، نحو "فايد" تارة اخرى ، وفي مزرعة على طريق الاسماعيلية تدور الأحداث ، ومن جديد فنحن على طريق المدينة دون أن ندخلها ، وكل ما نراه هذه المزرعة التى يمتلكها العجوز جاد ، المتزوج من شابة صغيرة هى فوزية ، ووسط هذا التناقض تدور قصة أقرب إلى " عشيقة الليدى تشارلى .. ترتبط فوزية عاطفياً بالسائق الشاب فارس ، بإعتبار أن زوجها العجوز لا يحقق لها رغباتها كامرأة ، تفشل الزوجة في الحصول على الطلاق من زوجها ، وتعرف أنها صارت "حامل" ونحن لا تهمنا القصة هنا ، بقدر التعرف على المدينة التى ظلت دوماً هامشية ، فقد استفاد المخرج هنا ، من الخضرة الفائقة في المزرعة التى يستعملها الثرى جاد في فايد ، وهناك استفاد من سقوط رمزاً الى الخطيئة الكبرى التى وقعت فيها الزوجة .

وكما اشرنا فالأحداث تنتقل بين طريق القاهرة الاسماعيلية ، وبين منزل الزوج جاد ، ومزرعته ، ومع هذا الطريق يبرز شاحنة أمام سيارة فارس ، فتندفع وسط الرمال ويكاد السائق العاشق أن يموت ..

ولعل أول فيلم تدور أحداثه بالكامل داخل مدينة الإسماعيلية ، هو "انقذوا هذه العائلة" ، هو فيلم المدينة ، بإعتبار أنه يتعامل مع عائلة اسماعلاوية ، تعيش داخل المدينة الأنيقة كما تظهر فتبدو مناسبة بشكل ملحوظ للقصص العاطفية – الكوميديا– العائلية ، وقد تكرر هنا مشهد مشابه لما رأيناه في "مع الذكريات" ، حيث ينزل ممدوح إلى المياه للاستحمام فيها ، فتقوم الفتاة ليلى بسرقة ملابسه خلسة ، وتذهب بها ،

وهنا يضطر ممدوح أن يعود إلى منزله "بالمايوه" فيجرى في الشوارع كأنه يتريض مما يثير غضب فؤاد بك ، ويسخر منه دون أن يعرف ان ابنته هى التى سرقت ملابس هذا الرجل شبه العار .

هذه المشاهد من الفيلم ، اتاحت للمتفرج الذى لم يزر الإسماعيلية أن يراها بشكلها الجميل ، وأن يستطلع طلة المدينة التى بدت نظيفة متسقة ، سواء المشهد الذى تبدو فيه الفتاة اقرب إلى نهر النيل ، لكنها أكثر نظافة ، ورسوخاً في الأفق ، بإعتبار أن النيل تم انتهاكه بعمارات ، وبنايات ، ومكونات ، اما قناة السويس هنا ، فبدت تخترق الصحراء والخضرة التى زرعها ابناء المدينة ، فبدا الشاطىء المجاور لمياه القناة ، أخضر اللون اما شوارع المدينة فقد اكتست بالخضرة ، والأشجار الكثيفة المنسقة ، والفيلات البيضاء قصيرة القامة بعيداً عن ناطحات السحب .

وكما أشرنا فإن القصة تدور حول ابناء المدينة خاصة الذين يعيشون في مستوى إجتماعى ، فالأب يعمل مديراً في احدى الشركات ، ويعيش مع زوجته واخته وزوجها في هذه الفيلا حيث تدور قصص صغيرة، دون معاناة كبرى ، لذا اكتسب الفيلم الذى كتبهفاروق صبرى اجواء الكوميديا ، فالمهندس ممدوح يلاحق ليلى عاطفياً في اكثر من مكان . وهى طالبة في احدى المدارس ، يحلو لها ان تتجول وحدها عند شريط القناة ، فتتعرض غلى مضايقات ممدوح ، وعندما تود ان تلقنه درساً و فإنها تأخذ ملابسه عندما ينزل للإستحمام ، وتذهب ، وهذا

الحادث سيكون سبباً في ان تتوطد العلاقة بينهما تدريجياً ، كما ان القصص المنزلية ، تدور حول مقالب تدبرها ليلى ضد عمتها ، وزوجها ، وايضاً ضد ابيها ، وهناك تقارب بين قصة الفيلم ، وفيلم "سنوات المستحيل" الذى قام ببطولته دافيد لين ولولا اولبريت عام ١٩٦٨ ، لكن ما يهمنا هنا ، أن الفيلم تدور احداثه في مدينة الإسماعيلية ، وكيف ظهرت المدينة بعد انتهاء حرب اكتوبر بعدة اعوام ، فلعل هناك سبب سياسى غير مقصود ، ان مدن القناة ، قد عادت الى الحياة بشكل طبيعى ، والناس هناك يتحدثون في السياسة ، لا عن الحرب، بل انك تكاد لا تحس انك في مدينة بعينها ، ولعل المخرج حسن ابراهيم قد استفاد من التصوير الخارجى ، في مدينة من السهل أن ترى في مشاهدها الطرف الاسيوى من الوطن يمتد بإمتداد الأفق، تقطعه في بعض الاحيان مرور سفينة قادمة من الجنوب ، نحو الشمال ، حيث البحر المتوسط ،

وانا لا اعرف ، هل هناك علاقة ما بين احد صناع الفيلم ، وبين المدينة ، هل ينتمى المؤلف ، او المخرج الى الإسماعيلية ام لا ، لكن فاروق صبرى لم يكتب افلاماً اخرى تدور احداثها في الإسماعيلية وايضاً لا اذكر ان المخرج حسن ابراهيم قد صور افلامه التالية في المدينة نفسها .

لكن الذى نعرفه ، ونتأكد من ان المطرب محمد فؤاد ، صاحب فكرة فيلم "اسماعيلية رايح جاى" لكريم ضياء الدين ١٩٩٧ قد روى سيرته الذاتية ، وقصة اسرته في الفيلم ، هذه الاسرة التى أقامت في

الاسماعيلية ، رب الاسرة هو سالم ، وهو أب لخمسة ابناء هم جمال ، وحسن ، وإبراهيم ، وعبد العزيز ، ووفاء ، ومع اندلاع حرب يونيو ١٩٦٧ ، هاجروا للإقامة في إحدى الاحياء الشعبية بالقاهرة ، بعد أن احيل الأب إلى التقاعد ..

أحداث الفيلم تدور في السبيعينيات ، فالأسرة لا تزال تقيم في القاهرة ، ولم تعد بعد إلى المدينة التى هاجرت منها ، ويتم تجنيد جمال، ويعمل حسين نجاراً ، أما عبد العزيز (زيزو) فهو ميكانيكى سيارات بينما يحصل ابراهيم (هيما) على الثانوية العامة ، أما وفاء فهى تلميذة بالإعدادى ..

هيما هو محور الأحداث ، وهو الذى يتذكر ما دار بالإسماعيلية اثناء الحرب ، ودائماً ما تأتيه الكوابيس ، وهو نائم إلى جوار اخيه . بأن طائرات العدو تقذف بنايات المدينة ، فيهب من النوم مفزوعاًوهذه الكوابيس لا تأتى إلى زيزو قط ، رغم أن الأثنين عاشا قصة عاطفية ، تربطه بجارته سلوى ، وعلاقة بطل الفيلم المطرب الذى تربطه بصاحب الفرقة الغنائية عزت ابو عوف الذى قدم فرصة ذهبية للدخول إلى عالم الغناء ..

وفي الفيلم هناك خلط ملحوظبين الأزمنة ، فالمطرب ، وصاحب الفرقة ، عزت ابو عوف لم يكن قد صار نجماً في السبعينات ، وكان في بداية الثمانينات مسئولاً عن فرقة الفور ام التى لم يكن لها اى حيثية قبل

ذلك ، وأصابتها شهرة .. ويشير الفيلم أنه هذه السنوات أن الاب سالم، قد فقد ابنه جمال في حرب ١٩٧٣ ، دون أن نرى أثر الحرب على اجواء الفيلم .

الغريب أن الفيلم الذى يحمل اسم الإسماعيلية ، لم يتم تصويره في المدينة ، وان أسرة سالم قد عاشت في القاهرة ، وأن الرحلة التى قام بها شباب الأسرة إلى الإسماعيلية في نهاية الفيلم لم تكن سوى الإجترار ذكريات الماضى ، واستشراف لأفاق المستقبل ، فمن المعروف أن محمد فؤاد قد استقر مع اسرته في القاهرة ،كما أن المدينة بدت بعيدة عن اسم الفيلم ، وربما أن الأسم يعطى الإيحاء أن المدينة تعيش في الذاكرة ..

وقد بدت المدينة ايضاً بعيدة في فيلم "هارمونيكا" لفخر الدين نجيدة عام ١٩٩٨ ،حيث دارت الأحداث في مدينة القنطرة ، من خلال اسرة تعيش في بيت أقرب الى الخيام ، يعيش فيه شاهين وأخته نعيمة ، وأخيه ، وابن أخته سعد ، هنا تبدو الفتاة طليقة ، قريب من المنزل ،أقرب إلى أحد فروع نهر ، وليست هناك اشارة إلى الحرب ، سوى من خلال بعض الكوابيس ايضاً التى تأتى الى شاهين اثناء النوم ، وهى كوابيس قليلة ، كى تذكرنا أن هذه المنطقة عرفت ويلات الحروب ، فنحن أمام قصص منزلية ، إجتماعية ، مثل العلاقة التى تنمو بين الشاب سعد ، والفتاة صفية ، وقيامه بمخادعتها ورفضه الاقتران بها مما يؤدى الى حدوث شقاق بين أفراد الأسرة ..

إلى هذا العالم الصغير ، تأتى نرجس للإقامة ، وهى المرأة القاهرية التى خدعها زوجها ، وهى للعمل في رصف الطرق في منطقة القناة ، وتعيش نرجس مع أسرة شاهين هو قد اقسم الا يتزوج بعد رحيل زوجته ، وهى تحاول ان تجد عواطف صادقة نبيلة تجدها عند الرجل ، وفي اجواء الفيلم ، تعانى النساء دوماً من جحود الرجال ، الذين ذهبوا بلا عودة ، ومنهم زوج نرجس الذى ذهب للعمل في منطقة القناة ، وايضاً زوج الاخت نعيمة الذى تردد انه عائد الى داره ، فراحت نعيمة تتزين بأحسن مم لديها من ملابس ، لكنه لا يعود ..

وهناك علاقات بالغة البراءة في الفيلم ، مثل تلك التى تربط شاهين بطفل يتيم الأم ، يقوم بتركيب جناحين له من الريش الابيض ، هذا الشاهين من الصعب الامساك به ، مثلما تقول اخته عنه إلى نرجس . وللفيلم نهاية مفتوحة مثل الحياة ، فأغلب المشاكل لا تزال مطروحة دون أن تجد حلاً ، مثل عدم رغبة سعد في الزواج بشكل عام ، وليس فقط من صفية ، ورغم الرقص الإيقاعى الذى قام الجميع بأدائه في نهاية الفيلم ، والعناق الدافيء بين شاهين ونرجس ، فمن الصعب الاقتران رسمياً بينهما ، لانها لا تزال زوجة لرجل آخر ، لم تعثر عليه بعد ، رغم أنه يعيش في نفس المنطقة .

ظهرت الإسماعيلية في شكلها التاريخى ضمن احداث "ايام السادات" لمحمد خان ، حيث يذهب السادات إلى منطقة القناة ، ويعمل هناك ، حيث يتعرف على الفتاة جيهان ، وتقوم بينهما قصة حب

تؤدى إلى الإقتران ، وقد صور الفيلم المدينة من خلال الأفق ، وكانت أغلب المشاهد التى بدت فيها ليلية ، او عند الغروب ، وقد بين الفيلم نمط الحياة في مدن القناة قبل ثورة يوليو ، فهى مكان يذهب اليه الباحثون عن فرص عمل ، عندما تضيق بهم السبل في مدن الوادى ..

كما بدا طريق القاهرة الاسماعيلية في أحداث فيلم "آسف على الازعاج" لخالد مرعى عام ٢٠٠٨ ، حيث يصحب حسن المهندس في الطيران المدنى ، فتاته فوق دراجة بخارية ، للذهاب لقضاء بعض الوقت الممتع على ضفاف القناة ، ثم يعود في آخر النهار الى القاهرة. حيث تبدو المنطقة هنا اقرب الى المنتجع ، مثلما حدث في فيلم "رحلة غرامية" ثم يكشف لنا الفيلم أن الكثير من احداثه ، ومنها هذه الرحلة فوق الدراجة البخارية ، بمثابة تهيؤات .

في الواقع ، مثلما في السينما ، فإن مدن القناة الثلاثة ، ومنها الإسماعيلية ، قد عرفت ويلات الحروب ، وقسوة هجرة اهلها ، ومذاق العودة ، لكن شواطىء جنوب سيناء ، ومدن أخرى الساحلية هى التى حدت من هذه الأحداث من هذه البطولات .. حيث اتجه الاهتمام الى الساحل الشمالى ، ثم إلى شرم الشيخ، وشواطىء البحر ، وتكالبت قصص الأفلام في العقد الاول من القرن العشرين ، لتصور الأحداث في المنتجعات السيناوية ، وبدت مدن القناة وخاصة الإسماعيلية ، مغبونة لم تأخذ حقها من الحضور والتواجد .

السويس

الكثيرون من المصريين يعرفون ما يتعلق بالحياة عن طريق السينما وأغلبهم حين يفكر في الإنتقال من المحافظات الأخرى بغية البحث عن لقمة العيش فإنهم يتجهون إلى العاصمة ، وبعض المدن الكبرى التى تكدست مع الزمن بشكل ملحوظ ضاقت بمن فيها ، رغم المشروعات التوسعية التى سعت الحكومات المتعاقبة لإقامتها .

ومن المهم أن نتعرف على الصورة النمطية لمدن القناة الثلاثة كما صورتها السينما ، هذه الصور التى أصبحت عليه هذه المدن ، ولما صارت اليه ، بإعتبار أنه من السهل جداً عمل التصوير الخارجى في هذه الأماكن ، قياساً إلى التصوير ، كما أن صناع الأفلام لم يذهبوا إلى هناك لتصوير البيوت من الداخل ، فهذا من السهل عمله في أى مكان ...

وباعتبار أن فيلم "ابن حميدو" قد تم تصويره في مناطق عديدة من مدينة السويس عام ١٩٥٧ ، وأن الناس تحب مشاهدة الفيلم لجاذبيته في نواحى عديدة ، فإن الصور الحية للفيلم تعكس لنا كيف كانت المدينة عقب العدوان الثلاثى على مصر ، حيث بدت السويس كأنها

كانت بعيدة تماماً ما سمى في السياسة العالمية بحرب السويس ، والمقصود هنا بالطبع ، القناة ، فهذه الاحداث تنتمى في أغلبها إلى بورسعيد .

مثلما أشرنا في مقالنا عن مدينة بورسعيد ، فإن العدوان الثلاثى على المنطقة كان بمثابة نقطة الضوء التى القيت على المدينة ذات التاريخ القديم ، والتى سميت يوماً ببور ابراهيم ، لكن السينما انتبهت إلى المنطقة في النصف الثانى من القرن الماضى ، وكان فيلم "ابن حميدو" الأكثر شهرة ، ولا نقول أهمية ، وهو كما نعرف فيلم كوميدى اجتماعى في اطار من المغامرات ، حيث تم النظر إلى هذه المنطقة باعتبارها حدود بحرية ، يتم عندها تهريب المخدرات ، وهذان هما اثنان من رجال الشرطة يذهبان إلى هناك لكشف عصابة تهريب المخدرات عن طريق خليج السويس .

هكذا بدت المدينة مدينة صيادين ، بعيدة عن طموح الباحثين عن الثروة ، واذا حضر اليها اثنان من الشباب ، فسرعان ما يبدوان كغريبين ، تسعى اسرة المعلم الصياد إلى تزويجهما ، بابنتيهما ، خاصة ان الكبرى تعانى من عنوسة ملحوظة ، وتكاد "تتهبل"على اى عريس في محيطها الإجتماعى .

السويس هنا مدينة صغيرة ببنايتها ،وسكانها ، ومفاهيمها ، وقد تم النظر اليها على أنها مكان نموذجى للتهريب .. يذهب إلى صحرائها

المهربون ، مثلما حدث في فيلم "سمارة" عام ١٩٥٥ ، وفيلم "الأخ الكبير" عام ١٩٥٨ ، وهناك فيلم في هذا العام يصور السويس على اساس أنها كانت عام ١٩٥١ مدينة للمطاريد والهاربين من العدالة وهو فيلم "سلطان" لنيازى مصطفي ، مما يعكس رؤية السينما ، أو ربما الحياة نفسها ، إلى المدينة التى كانت تقع بعيداً عن العمران ، أو عن المعاصر .

في بعض هذه الأفلام بدت المدينة كأسم ، لكن أحداً لم يذهب إليها ، حيث تقع على مقربة منها معسكرات الانجليز التى ذهب عباس الحلو للعمل بها والعودة بنقود كى يتزوج من حبيبته حميدة في "زقاق المدق" ، إلا ان طريق السويس بدا واضحاً في فيلم كوميدى "كيلو ٩٩" اخراج ابراهيم حلمى عام ١٩٥٦ ، حيث تقوم قوات الاحتلال بإحتجاز سائق شاحنة ، وهو في طريقه الى السويس ، ويحاول عامل المقهى الذى شاهد الحادث اطلاق سراح السائق الذى يعمل ايضاً مطرباً في الملاهى الليلية في الوقت الذى تتوجه زوجة السائق الى مدينة السويس لإحياء أحد الأفراح ، ويقوم الجنود البريطانيون بتفتيشهم واعتقالهم لسرقة أموالهم .

لاشك ان أشهرفيلم تم إنتاجه في النصف الاول من الستينات ، وتدور احداثه في مدينة السويس هو "الشياطين الثلاثة" لحسام الدين مصطفي عام ١٩٦٤ ، وهو المخرج الذى نظر إلى هذه المنطقة كأنها

نائية عن مصر من خلال فيلمه فيلمه "صراع في الجبل" الذى تدور أحداثه في منطقة ابى زعبل ..

في داخل سجن ابى زعبل ايضاً ، تدور الاحداث الاولى من فيلم " الشياطين الثلاثة" حيث يقضى ثلاثة مساجين مدة عقوبة كل منهم ، سعداوى قام بقتل أحد الاشخاص ، وفتوح مدان بتجارة المخدرات ، وعزب تشاجر مع تاجر سمك ، وعندما يخرجون من السجن يقسمون معاً أن يعيشوا حياة صالحة ، فيتجهون للعمل والمعيشة في السويس ، حيث يقع عزب في حب زينب وينوى الزواج منها بعد أن فهم اهلها انه سيسافر في رحلة للخارج ، لذا فإن عزب طلب من المعلم عبد الرازق تاجر السمك ان يرد له سيارته النقل التى تركها لديه ، فر المعلم ، ودفع رجاله لضربه ..

الأحداث تدور في السويس ، والميناء التجارى ، حيث يتعرف الاصدقاء الثلاثة على المعلمة حميدة التى تمتلك مركب صيد في السويس ، وتخضع مثل الصيادين لسيطرة المعلم عبد الرزق اذى احتكر نقل السمك الى القاهرة..

نحن أمام واحد من الأفلام التى بقيت مشاهدة ملحوظة حين عرضه عام ١٩٦٤ ، وهو ينتمى إلى أفلام الثلاثينات المرتبطة بالمغامرات الشبابية ، وقد ضم في فريق العمل كلاً من رشدى اباظة وبرلنتى عبد الحميد وحسن يوسف واحمد رمزى ، ونوال أبو الفتوح ،

حيث يمتلىء الفيلم بالمواجهات ، والمشاجرات ، والمواقف الانسانية التى يقوم بها الاصدقاء الثلاثة عندما يحاولون التفاهم مع المعلم ، وينضمون الى المعلمة حميدة والعم شلبى ابو زينب ، واشتروا سيارة نقل جديدة ، ونقلوا السمك لحسابهم ،الا أن المعلم ورجاله يقومون بحرق السيارة المؤمن عليها ، ويتم شراء سيارة اخرى ، لكن المؤامرات استمرت فوضع رجال عبد الرازق المخدرات في السمك الذى ينقله الثلاثة الى القاهرة ، وتم ابلاغ الشرطة ..

ونحن نحكى القصة بشكل موجز لأن هذا النوع من الأفلام قد ساد في هذه الفترة في قصص الأفلام ، وكان المخرجون يبحثون عن مدن ساحلية تدور فيها الأحداث ، وبدت الاسكندرية كأنه تم استهلاك افاقها ، واجواء البحر بها ، كما أن مسألة "الثلاثة" قد تكررت أكثر بعد نجاح هذا الفيلم ، الذى يدور حول ثلاثة من التائبين عن الجريمة ، يسعون قدر الإمكان الى ان يعيشوا بشرف رغم وجود إغراءات حقيقية للعودة إلى حياة كل منهم السابقة ، فالشباب يكتشفون أن المخدرات في السمك ، ويعتقدون أنه ملك حميدة ، وانها استغلت سذاجتهم لنقلها ، فغادروا الى السويس ليطلبوا حسابهم ، في اثناء ذلك تكون الشرطة قد رصدت رجال عبد الرازق اثناء نقلهم المخدرات على الشاطىء مستخدمين مركب حميدة دون ان تكون مشتركة معهم ، وبعد معركة كبيرة تم القبض على عبد الرازق ورجاله ..

ما إن جاء عدوان يونيه حتى تغير كل شيء بالنسبة لابناء مدن قناة السويس ، بعد أن تم غلق القناة ، وزحف ابناء المدينة الى المدن الأخرى ، وخاصة العاصمة ، وفي اعمال سينمائية عديدة ، كان يتم ذكر ابناء القناة دون التركيز على اسم المدينة ، ان كانت بورسعيد أم الإسماعيلية ، أم السويس نفسها ، وكنا نرى ماذا حدث لهؤلاء الذين هاجروا من مآسى ، فهناك أفلام صورت الحياة البائسة التى عاشها المهاجرون بعيداً عن مسقط رأس كل منهم ، وسوف نتوقف عند هذه الأفلام ، ابتداء من "حمام الملاطيلى" لصلاح ابو سيف ١٩٧٢ ، وحتى "أحلام صغيرة" لخالد الحجر ١٩٩٣ .

كم ، احزنتنا نحن ابناء المدن البعيدة عن السويس ، منظر المدينة المنكوبة في الحرب ، ونحن نشاهد المناظر الاخيرة من فيلم "ثرثرة فوق النيل" لحسين كمال .. حيث بدت المدينة قطعة من الخراب المقيت ، مهدمة المبانى ، والشوارع ، وقد ذهب اليها وفد من الصحفيين والمواطنين ، هذه الزيارة للمدينة المحطمة ، تنبه انيس بعد عدة اشهر الى الفلاحة التى ماتت ، وتبدو الزيارة بمثابة منبه لرجل مسطول ، صار عليه ، أن يفوق من غيبوبته ، لإيقاظ الوعى الإجتماعى والناس إلى ما اصاب مدن القناة .

أما فيلم "أحلام صغيرة" لخالد الحجر ، فقد بدأ بمشهد ملىء بالضباب ، والحزن في عام ١٩٦٧ ، ونحن هنا أمام عمل ملىء بالصدق، حيث تبدو الصور والذكريات كأنها تخص المخرج ، وأنه

عاشها وهو يصور كيف مات الصبى غريب مع هزيمة يونيه ١٩٦٧ ، لينبعث صوت غريب وكأنه قادم من العالم الآخر ، ليحكى قصة حياته القصيرة من خلال حكاية وطن ، ومعاناة شعب السويس كله ، بطريقة الفلاش باك .. نعود لحفل زواج أمه بابيه ، وسبب اطلاق اسم غريب عليه ، حيث يجب ان يعيش لان كافة ابناء امه السابقين ماتوا . ليعيش الابن غريباً ، ومن الواضح ان هناك دلالة لاختيار الاسم للصغير ، مقروناً بالحى الذى شهد الغارات الاسرائيلية ، وتهدمت بناياته .

العودة الى الوراء ، تروى ان والد غريب تطوع في المقاومة الشعبية عام ١٩٥٦ ، ليصد العدوان الثلاثى على مصر ، لكن يدفع حياته في اعمال المقاومة ، ويصبح شهيداً بينما تموت امه حزناً على رحيل ابنها . ولا يترك الاب شيئاً لزوجته ، فتعمل حائكة ، كما يضطر الابن غريب لترك الدراسة وعمره ثمان سنوات ليعمل في مطبعة الاسطى صلاح صاحب المنزل الذى يقيم به والذى يعامله بقسوة ويوالى ضربه .. كما ان صلاح يطمع في الزواج من أمه هدى بعد استشهاد الاب ، الذى يعيش ابنه على ذكراه ، فخوراً به وبما فعل، وعلى جانب آخر ، فإن صلاح يقيم علاقة غير شرعية مع هدى يسفر عن حملها سفاح . في المطبعة يلتقى غريب بمحمود زميل والده في المقاومة الشعبية ، ويعجب غريب بالزعيم جمال عبد الناصر ، ويتخذه أباً له ، وصاحباً له ولبيته وبلاده من عدوان اليهود ..

تدور أحداث الفيلم كله في مدينة السويس ، ويعتبر بمثابة سيرة ذاتية للمدينة نفسها في الفترة بين عدوانين على المنطقة ، فالسويس هى أول من تتلقى ضربات العدوان الاسرائيلى ، فالطفل غريب يرفض ان ينتقل الى القاهرة بصحبة امه ، عقب زواجها من صلاح ، غير عابىء بالعدوان الاسرائيلى الشرس على السويس ، وتدميرها ، مع انسحاب الجيش المصرى من سيناء ، وسقوط الالاف في الميدان .. وعندما يشاهد الصبى الرئيس جمال عبد الناصر يتنحى في التليفزيون ، وينهار ويندفع وسط المظاهرات الشعبية الصاخبة التى خرجت لتطالب عبد الناصر بالعدول عن التنحى ، ولكن يسقط تحت عجلات احدى سيارات الجماهير ليلقى حتفه ..

يعكس الفيلم الحياة القاسية التى يعيشها ابناء المدينة ، فالصبى لم يشأ أن يغادر المدينة مع من وصلوا ، وبقى مع جثمانه في السويس ، لاندرى بأى ارض دفن ..

في فيلم صلاح ابوسيف عن "حمام الملاطيلى" فإن الذين تركوا مدنهم عقب الحرب ، قد عانوا من البطالة ، وعاشوا في ظروف قاسية ، اما البنات ، فإن بعضهم لجأن الى ممارسة مهن غير شريفة ، والفيلم يحكى عن واحد من الذين هاجروا ، دون أن يحدد اسم المدينة التى جاء منها .. يبحث عن وظيفة، وتكاد نقوده ان تنفذ منه ، وترمى به الاقدار الى حمام الملاطيلى للعمل هناك . حيث لا يزيد اجر المبيت في

الحمام عن ثلاثة قروش ، وفي هذا المكان يقابل كافة المتناقضات ، من عاهرات وشواذ جنسياً ونساء ناضجات يبحثن عن المتعة ..

وما ان قامت الحرب مجدداً في السادس من اكتوبر ، حتى تم التركيز على مدينة السويس بشكل خاص باعتبار ان المعابر الاساسية قد اقيمت هناك ، وان الجيش المصرى قد عرف العبور من مدينة السويس ، تقريباً وانطلق الظباط والجنود نحو الضفة الشرقية للقناة ، ويرفعون الاعلام على الجانب الآخر من القناة ، وفي عام ١٩٧٤ ، تم عرض اربعة افلام في الذكرى الاولى لنصر اكتوبر ، كانت منطقة السويس هى المركز الاساسى ، للاحداث هذه الافلام هى "ابناء الصمت" لمحمد راضى و"الرصاصة لا تزال في جيبى" لحسام الدين مصطفي ، و"بدور" لنادر جلال ، و"الوفاء العظيم" لحلمى رفلة ، كلها تدور حول فترة النكسة وحدوث النصر ، وبدت المدينة المتهدمة في لقطات عابرة ، وصارت المدينة رمزاً للصمود والقوة المناضلة ، بالصورة التى راينا عليها، سينمائياً ، بورسعيد، ولكن بشكل اخف ..

لم يتم تسمية النصر الذى أحرزته مصر في عام ١٩٦٧ الى مدينة بعينها من مدن القناة ، لكن السويس كانت موجودة في الحياة ، العسكرية والسياسية ، فعند الكيلو ١٠١ تمت اول مباحثات عسكرية بين مصر واسرائيل في هذه المنطقة العسكريةدارت احداث الكثير من الأفلام التى تحدثت حول اكتوبر ، ومن أبرزها "العمر لحظة" لمحمد راضى ١٩٧٨ ، وهو اقرب في موضوعه وحكاياته ، واجواء للفيلم الذى

سبق لراضى اخراجه بعنوان "ابناء الصمت" يفضح فساد الصحافة ، ويتحدث عن جنود جاءوا من انحاء الوطن للدفاع عن وطنهم ، ويموتون من اجله ، في تلك الفترة ، وفي النصف الثانى من السبعينات ، قدم على بدرخان فيلماً تاريخياً عن المنطقة ، وهو "شفيقة ومتولى" الذى يتحدث عن حفر قناة السويس ، وليس شرطاً أن تكون الاحداث ممركزة في المدينة التى كلنت تعرف في تلك الفترة باسم "بور ابراهيم" حيث جاء في موسوعة الويكيبديا باللغة العربية أن السويس ظلت مدينة صغيرة هادئة حتى القرن التاسع عشر ، تقوم بوظيفة الميناء الذى يربط مصر بالاراضى المقدسة ، والشرق عموماً ، وكان عدد سكانها عام ١٨٦٠ ، يتراوح بين ثلاثة آلاف واربعة آلاف نسمة ، وما أن حفرت قناة السويس، حتى دخلت المدينة عهداً جديداً من تاريخها الحافل ، فاطرد العمران فيها ، وازداد عدد سكانها بمعدلات سريعة ، في هذه الفترة ، اما في عام ١٨٦٠، دارت احداث فيلم "شفيقة ومتولى" انتاج عام ١٩٧٨ ، حول قيام السلطة باستحضار عشرات الالاف من الشباب للعمل سخرة في قناة السويس ، ومن بينهم متولى الذى ترك اخته تعيش وحدها مع الجد العجوز ، حيث تضطرها الظروف القاسية الى الوقوع في اغراءات ابن شيخ البلد دياب ، وتنتقل احداث الفيلم من أماكن اللهو التى تعيش فيها الاخت ، وبين حياة السخرة في منطقة القناة حيث يعمل متولى وزملاؤه في أقسى الظروف ، وقد بدت السويس هنا كمنطقة خيام يعيش فيها الذين شاركوا في الحفر وسط معاملة بالغة القسوة ، حيث يعلم متولى بالمصير الذى آلت اليه اخته فيقرر الأنتقام لشرفه ..

هذه فترة بالغة الحساسية في تاريخ حياة المدينة ، والتي تحدثت ايضاً عنها موسوعة الويكيبيديا بما نريد ان نعرفه عنها انه في مقدمة الاسباب التي عاقت نمو مدينة السويس ، ندرة المياه العذبة ، اذ كان ينقل اليها على ظهور الجمال ، من عيون موسى ، التي تقع على مسافة ١٦ كيل متراً الى الجنوب الشرقي من السويس ... ونحن نتوقف عند هذه النقطة ، لان السيناريو الذي كتبه صلاح جاهين ، كان القصد منه حكي قصة شعبية كتبها سنوتي الحكيم ، وليس عن مدينة السويس ، وان كان الفيلم قد اكتسى ببعض الاجواء الوطنية ، واعتبر ان ما حدث نوع من النضال ضد السياسيين الذين كانوا يعملون لصالح الاجانب ، وخاصة الطرابيشي الذي كان يقوم بتوزيع الجديد والعمال ، الى شركة قناة السويس ، اي انه كان السبب في استحضار متولي شقيق شفيقة الى منطقة القناة ، كما اشار الفيلم الى ان افندينا المصاب بامراض جنسية مخزية ، شريك للطرابيشي في تجارة العبيد .

في النصف الثاني من السبعينات ، بدأت الافلام تاخذ شكلاً وطنياً مختلفاً فمن نصر اكتوبر الذي بدأ من السويس ، الى انجازات وكالة الاستخبارات المصرية التي مهدت لهذا النصر وذلك من خلال مجموعة أفلام تتحدث عن جواسيس مصريين نجحت اسرائيل في تجنيدهم في افلام مثل "الصعود الى الهاوية " ١٩٧٨ ، و"بئر الخيانة" ١٩٨٧ ، و"اعدام ميت" ١٩٨٥ ، وفي هذه الافلام بدت هذه المنطقة مجروحة احياناً ، من خلال قيام العدو بقصف قواعد عسكرية بناء على معلومات حصلت عليها اسرائيل من الجواسيس المصريين الخونة ،

خاصة تلك القاعدة التى دمرت في فيلم "الصعود الى الهاوية" من خلال ما قام به مهندس انشاءات عسكرية لصديقته الجاسوسة في باريس ، وراح ضحية الحادث اشخاص ، وبنايات ذات مواقع حساسة ..

بدت المدينة هنا بعيدة عن الكاميرات ، لكنها موجودة باسمها ، ومكانها ، واهلها ، فهى التى دفعت ثمن حرب الاستنزاف ، ومبانيها ، وسكانها ، وقد تكرر الامر نفسه من خلال الافلام التى شهدت اول دخول مدنى للمصريين الى سيناء ، مثل فيلم "وضاع حبى هناك" ١٩٨٠، الذى يروى قصة امرأة تحصل على تصريح لدخول سيناء من أجل البحث عن زوجها المفقود في الحرب ، واحداث الفيلم تدور في سيناء، لكن كان على الزوجة ان تمر من معبر السويس ، ونقاط المرور التى هناك ، والجدير بالذكر ان عديداً من هذه الافلام من اخراج على عبد الخالق ، الذى سبق واخرج فيلم "اغنية على الممر" حول احد مشاهد الحرب لعام ١٩٦٧ .

للاسف الشديد ، لم تهتم الدولة بمدينة السويس ، بنفس الدرجة التى اهتمت بها بمدينة بورسعيد التى شهدت طفرة اقتصادية ملحوظة ، بعد تحويلها الى منطقة حرة ، وبدت المدينة كأنها تدخل الى دائرة الظل في الاهتمام ، وانعكس ذلك على ظهورها في قصصالافلام ، ولعل المدينة التى كظمت غيظها في هذا الشان قد عبرت بسرعة عن مشاعرها نحو الدولة في ثورة يناير ، حيث شهدت غضباً شعبياً ملحوظاً وفي الثلاثين عاماً الماضية لم نر مدينة السويس في اطارها الصحيح سينمائياً،

الا من بعض الافلام ، بعضها نظر اليها على انها مدينة الحرب ، مثلما فعل عاطف الطيب في فيلم "كتيبة الاعدام" كما رأيناها في افلام مقاولات ، وافلام قليلة الأهمية مثل "غريب في الميناء" ، و"الرجل الثالث" وكما نعرف، ففي السنة التالية ،كانت سيناء خاصة شرم الشيخ، هى البؤرة التى حصلت على أغلب الاهتمام ، تدور احداث فيلم "كتيبة الاعدام" لعاطف الطيب عام ١٩٨٩ بين القاهرة والسويس ، حيث يلتقى اربعة اشخاص لهم علاقة باحداث دارت في السويس عام ١٩٧٣ ، ذات يوم من ايام الصمود ، حيث راح العدو الاسرائيلى يجمع المعلومات عن رجال المقاومة الذين رفضوا الهجرة خارج المدينة ، وعن طريق احد عملاء العدو خرج الأكتع عرفوا ان سيد الغريب هو الرجل الذى جمع حوله ابطال المقاومة ، فوضعوا خطة عن طريق عميلهم للتخلص من سيد وابنه والآخرين معه اثناء الليل .. ونجحت الخطة وقتلوا "سيد" وآخرين ، ولم يبق حياً سوى حسن عز الرجال ..

تحوم الشبهات حول حسن انه قام بالتواطؤ مع العدوالاسرائيلى لقتل سيد وابنه والاستيلاء على مبلغ ضخم كان مخصصاً لقوات الجيش، التى كان سيوصلها سيد الغريب لرجاله ، لكن لم يكن يمتلك اى دليل براءته .. انه موضوع مريب لم يطرأ على بال احد سوى الكاتب اسامة انور عكاشة ، فلسنا هنا حول فيلم عن نصر اكتوبر ، بل بالعكس، انه يحكى عن خيانات مصية في اشد الايام حلكة بالنسبة للمدينة ، ايام الثغرة ، والفيلم تبدأ أحداثه عند خروج حسن من السجن بعد اربعة عشر عاماً من العقوبة ، ونعرف ما دار في السويس عام ١٩٧٣ من خلال

الفلاش باك . فحسن يود اثبات برائته ، ولديه أمل واحد أن يبحث عن ابنه الوحيد ، هانى من اجل اثبات هذه البراءة ، لكنه لا يجد الزوجة ، ولا الابن وهناك على جانب آخر الفتاة نعيمة ابنة سيد الغريب التى تريد الانتقام لمقتل ابنها ، تلاحق الشرطة حسن ، ويقوم الظابط يوسف باضطهاد حسن وتعذيبه ، وبعد طول مطاردات تعرف نعيمة ان الأكتع الذى كان يعيش في السويس عيناً للعدو على رجال المقاومة ، وكان سبباً في موت الشهيد سيد وابنه ، قد حصل على ثمن خيانته من مرتبات الجيش ، وصار الأكتع من كبار رجال الاعمال ، وصار معروفا باسم "ابو خطوة" .

يتأكد الظابطان يوسف وكمال من براءة حسن ويقفان الى جانبه ، والى جانب نعيمة الباحثة عن قتلة ابيها ، وفي لحظة واحدة يطلق الاربعة الرصاص على الخائن الذى باع رجال المقاومة للاسرائيليين ، وكما نلاحظ هنا ، فإن الفيلم يدور في إطار السويس ، التى نراها مظلمة ، من خلال عمليات تهريب أموال القوات المسلحة ليلاً في وقت من احلك واصعب ايام الوطن ، ايام الثغرة .

اذا كانت افلام التجسس قد قبضت على مصريين خونة ، تسببوا في ايذاء مصر ، خاصة مدن قناة السويس ، فإن "كتيبةالاعدام" هو عن خائن للوطن ، واستفاد من خيانته على الاقل اربعة عشر عاماً ، ويجب ألاننسى في نفس الآونة انه قدمت السينما المصرية فيلم " ليلة القبض على فاطمة" حول شاب خائن في بورسعيد مد يد العون الى الاعداء في

عام ١٩٥٦ ، وساعد في تهريب الاسلحة ضد وطنه ، صحيح ان الخونة في هذه الافلام حصلوا على جزائهم بالسجن ، والمحاكمات ،او الموت، لكن هؤلاء الخونة ، كانوا يرتدون دوماً اقنعة نجوم محبوبين لدى المشاهدين .

فكانت هذه الكتابات ، بمناسبة التحولات الملحوظة في الوطن ، الذى مس مدن القناة الثلاثة ، وفي هذا الكتاب حول الصور التى ظهرت عليها مدينة السويس ، نؤكد ما سبق ان ذكرناه ، ان السويس رغم اهميتها ، تاتى في ذيل المدن الثلاثة إهتماماً من الدولة على المستوى الاقتصادى والاجتماعى ، والثقافي ، وايضاً الرياضى ، ولعل ذلك كان سبباً في الغضبة الشديدة التى حدثت في المدينة ، في يناير ٢٠١١ ، ثم في يناير ٢٠١٣ ، قد سارت السينما حسب وجود المدينة في دائرة الضوء .. رغم مكانة المدينة في تاريخ مصر الحديث .. ولكن

انها المدينة التى غنى المطربون من أجلها أغنيات بالغة الحميمية ، ومن أجل أغنية "يا بيوت السويس يا بيوت مدينتى استشهد تحتك وتعيشى انت " تم الاستعانة بمطربها محمد حمام ليقوم بأحد ادوار البطولة ويغنيها في فيلم "الظلال على الجانب الآخر " ١٩٧٥ .

شمال سيناء

اذكر كم ظل اسم سيناء محفوراً في افئدتنا طوال سنوات حياتنا ، نحن الذين كنا أطفالا صغارا في عام ١٩٥٦ ، وكنا شبابا صغيرا على أبواب الثانوية العامة عام ١٩٦٧ ، وذهبنا اليها في عام ١٩٧٣ ، لتخليصها من قوات العدو الاسرائيلى ، وفي هذه السنوات عرفنا ان الممثل يوسف شعبان أطلق اسم سيناء على مولودته انذاك ، وكنا سعداء ونحن أول من يذهب في طائرة عسكرية ، الى طابا في بداية الثمانينات وذلك من خلال وفد من نقابة الصحفيين ، وانذاك، ولا اعرف هل كان حدسى صحيحا ام لا ، رأيت الرمال اقرب الى لون الذهب ، وفيما بعد اتاحت لنا نقابة الصحفيين ان نذهب سويا الى معسكرات الشباب لقضاء اسبوع تصييف مع اسرنا في العريش ، وكانت اللحظات جميلة ونحن نتسوق في المدينة ، ونحاور الناس ثم قضينا اسبوع تصييف في رفح المصرية في صيف عام ١٩٩١ ، حين احتل صدام ارض الكويت ، ومن يومها لم ننقطع عن زيارة سيناء .. التى مات على حدودها مجموعة من خيرة الشباب .. فتغيرت المفاهيم تماماً .

سوف تبقى سيناء بالنسبة للكثير من الناس ايضا مشهداً سينمائياً بالغ الاهمية ، تتغير صورته من مرحلة لأخرى ، لكن شبه الجزيرة هذه كانت في التاريخ بمثابة الطليع الذى يتصدر الفرقة العسكرية يتلقى دوماً

اولى ضربات الحرب في اى زمن من الأزمنة ، ولذا ، فالغريب ان سيناء ستكون في أغلب افلامنا بمثابة ارض حرب ، وقتال ، قبل أن تكون ارض الفيروز مثلما يطلقون عليها ، حيث ان حضور هذه الارض المقدسة في حياة المصريين المعاصرين ، وفي افلامهم واعمالهم الفنية والادبية يبدو أكثر تواجدا في زمن الحروب ، او الأخطر عبر الحدود، ففي التاريخ كانت هذه الصحراء بمثابة الطريق من النيل الى الدول المجاورة ، وياتى منها الغزاة ، ويعودون بعد سنوات ، او قرون منهزمين ، مثلما حدث للهكسوس في رواية "كفاح طيبة " ، لنجيب محفوظ ، التى لا اعرف لماذا لم يتم انتاجها سينمائيا حتى الان .

الا ان سيناء كانت الطريق الذى سلكه رام من ارض فلسطين ، الذى وصل الى قصر الفرعون في فيلم " المهاجر" ليوسف شعبان عام ١٩٩٤ ، وهى اقرب لقصة توراتية ، وتم تغيير الاسماء فيها لاسباب خاصة بالرقابة ، وقد جاء الإخوة يبحثون عن رام بعد سنوات ، وقد صار مقربا من فرعون حاكم مصر ، وعن طريق سيناء عاد الشاب بعد سنوات عائداً الى فلسطين ، ووجد أباه في انتظاره ..

اذن فسيناء عبر التاريخ ، والأفلام كانت بوابة لدخول الجيوش والافراد ، وقد صورها سيسيل دى ميل مرتين في فيلميه "الوصايا العشر" ، باعتباره ان فرعون مصر قد غرق فوق هذه الارض ، لكن المصريين لم يقتربوا سينمائياً قط من هذه المرحلة لاسباب رقابية ، ترتبط بظهور الشخصيات المقدسة، على الشاشة ، ومنهم الانبياء ، وايضا بسبب

التكاليف ، وفي هذا الطريق ايضاً مشت مريم العذراء برفقة يوسف النجار حاملة رضيعها عيسى متجهة الى مصر ، لكن السينما المصرية الروائية لم تقدم فيلما عن هذه القصة ، وفي السينما المصرية هناك فيلم يحمل عنوان "فتح مصر" من اخراج فؤاد الجزايرلى عام ١٩٤٨ ، ولا احد يعرف اين يوجد هذا الفيلم الان ، كما اننا لم نعثر على كتابات نقدية حوله ، وان كان لدينا صورا لاعلاناته التجارية في المجلات و لانعرف كيف ظهرت سيناء في هذا الفيلم ، لكن هى ارض صحراوية تعبرها قوات عمرو بن العاص في اتجاه وادى النيل .

وفي الافلام التاريخية المصرية ، كانت سيناء طريقا للمواجهة العسكرية بين المصريين ، والغزاة ولعل اوضح مثال لذلك هو فيلم "وإسلاماه" لاندرو مارتون عام ١٩٦١ ، فعند اطرافها حدثت موقعة عين جالوت ، وتقابلت الجيوش المتحاربة ، حسب الفيلم ، من قوات مصرية بقيادة المماليك ، ومغول، وقوات اوربية صليبية ، آثرت ان تبقى على الحياد ، مما يعنى ان الكثير من النماذج التاريخية نظرت الى سيناء على انها ارض حرب ، تتقابل فيها الجيوش ، وتتقاتل ، وينتصر المصريون في بعض هذه المعارك .

وبعيدا عن الفيلم التاريخى فان سيناء وجدت هوى لدى صناع الافلام الصحراوية ، او البدوية ولا نستطيع ان نقول ان الكثير من هذه الافلام قد حدث داخل سيناء ، ولكن من المؤكد ان فيلم "سمراء سيناء" اخراج نيازى مصطفي عام ١٩٥٩ ، تدور احداثه في سيناء ، واهمية هذا

النوع من الافلام ، انها اشارت الى الناس ان شب الجزيرة ليست صحراء قاحلة خاوية من البشر، بل يسكنها بشر لهم قلوب تحب ، ولديهم عاداتهم وطموحاتهم ، اى ان مثل هذا الفيلم قد دخل الى وسط سيناء . حيث البشر، والحياة الحقيقية ، والفيلم يصور الحياة العصرية، وليس في التاريخ ،لسيناء، من خلال مهندس بترول يدعى عادل ، تزوج من ابنة مدير الشركة، دون ان يعلم انها تخونه مع ابن خالها ، يسافر مدحت للعمل في فرع الشركة هناك ، ويفرض طبيعته اللطيفة على البدو .. تقع سمرة ابنة شيخ القبيلة في غرامه ، وتحاول ان توفر له كل سبل الراحة .

تكتشف سمرة علاقة الخيانة بين الزوجة وابن خالتها و وتتحين الفرصة لكشفها امام الزوج و لكن الاسرائيليين يقومون بغارة جوية تشتت المجموعة ، يصاب عادل فتظن زوجته زوزو انه مات وتهرب مع ابن خالها مدحت ، اما سمرة فانها تقوم بانقاذه مما يولد الغيرة في قلب سويلم خطيب سمرة فيطاردهما لقتلهما ، وذلك بتحريض من مدحت وزوزو ، وينشب صراع بين عادل وسويلم ، ينتصر فيه عادل ويعترف سويلم بان زوزو وعشيقها قد حرضاها ، يطارهما في الجبل وتسقط عليهما الحجارة ويموتان ، يعود عادل الى حقل البترول من اجل انقاذه من ايدى الاسرائيليين ، ثم يتزوج من سمرة .

وقد اسبقنا حديثنا عن هذا الفيلم ، لانه مصرى بشكل خالص ، فقصص الحب تدور بين مصريين ، الاول قادم من مدينة مليئة بالخيانة ، والثانية تمثل البدوى المتفانى في عشقه ، اما قبل عامين من تاريخ انتاج

الفيلم ، فقد ظهرت سيناء كمعبر في فيلم "ارض السلام" اخراج كمال الشيخ ، الذى تدور احداثه في دير ياسين الفلسطينية ، اى ان قصة الحب التى تولدت هنا، كانت بين مناضل مصرى ، وفتاة فلسطينية ، لقد جاء احمد مع زميلين له عبر سيناء ، وقد مارس عملياته الفدائية هناك ثم قامت عشيرة دير ياسين بايوائه ، واخفائه عن جنود الاحتلال الإسرائيلى، لكن اغلب الاحداث كانت بعيدة عن سيناء .

كانت سيناء هى الارض التى حدثت فوق رمالها الكثير من قصص الحب والحرب ، اثناء المواجهة بين مصر واسرائيل ، طوال عقود عديدة، في زمن الحرب ، وفي زمن السلام ،لكننى اذكر أن من أوائل الافلام غير الحربية التى صورت سيناء ، كان فيلم الطريق "المستقيم" لتوجو مزراحى ١٩٤٣ ، فقد تم النظر الى سيناء على انها منفي نموذجى ، او مأوى للهاربين ومرتكبى الجرائم الذين يبحثون عن مكان آمن للمعيشة ،كانه أقرب الى سيبيريا لدى الروس ، سواء في أفلامهم او رواياتهم ، ففي هذا الفيلم ، يقوم مدير البنك الذى كان مستقيماً في حياته ، بقتل المراة التى خدعته ، وسلبته امواله ، وادعت انها تحبه ، فترك داره من اجلها، ووجد نفسه قاتلاً ، وقرر العودة الى مدينته بعد ان صار اولاده كباراً و واذكر ان القطار الذى دخل الى سيناء قادماً من وادى النيل الى سيناء ، قد تم تصويره في مشهد مظلم ، كئيب يعبر عن المرحلة القاسية التى سوف يعيشها الرجل في سنواته التالية ، وهذا يؤكد التشبيه الذى ذكرناه حول سيبيريا بالنسبة للروس .

واذا عدنا مرة اخرى الى سيناء ، باعتبارها دار حرب ، خصوصاً في القرن العشرين ، فلا شك ان هذا المكان ، قد دفع الثمن في الواقع ، خلال الحروب الاربعة التى دارت فوق هذه الارض ، احيانا ينهزم المصريون ، واحيانا ينتصرون ، وقد بدت سيناء ارض حرب في افلام حول حرب فلسطين عام ١٩٤٨ ، وقد ظهرت سيناء بمثابة معبر الى ارض فلسطين ، حيث المواجهة مع العدو الصهيونى في افلام عديدة منها "الإيمان" لأحمد بدرخان ١٩٥٢ ، و"الله معنا" للمخرج نفسه ١٩٥٥، و"نهر الحب" لعز الدين ذو الفقار عام ١٩٦١ ، و "رد قلبى" للمخرج نفسه عام ١٩٥٨ ، و"الاقدار الدامية" لخيرى بشارة عام ١٩٨٢ .

وهناك ايضا في هذا الصدد عدد كبير من افلام الفدائيين المصريين، ورجال المقاومة الذين دافعوا عن فلسطين ، وعبروا الى اسرائيل ، وقاموا بالعمليات العسكرية ، مثل فيلم "ارض الابطال" اخراج نيازى مصطفي عام ١٩٥٣ ، وهو ايضا اقرب الى رومانسيات الصحراء، حيث بدا المجتمع الفلسطينى بدويا اقرب الى المجتمع السيناومى ، وكأنه ليس هناك فرقا في العادات ، والسلوك، والملابس ، وفي سيناء ، فان الظابط احمد قد سقط مع طائرته ، ووقع في الاسر في فيلم "وداع في الفجر"، لحسن الامام ١٩٥٦ ، وهناك قصة مشابهة هى "الحياة والحب" ليوسف شاهين .

وقد تم انتاج عدد كبير من الافلام عن حرب فلسطين ، ودارت افلام كثيرة منها فوق رمال سيناء منها "صراع الجبابرة" لزهير بكير عام ١٩٦٢ ، حيث تتجه ليليان الراقصة اليهودية الى فلسطين عبر سيناء ، كى تعيش في ارض الميعاد ، وفوق ارض سيناء يضطر رجل للهرب الى اسرائيل عبر سيناء ايضا بعد ان يتخفي في ملابس جندى مصرى ، وهو قاتل ، وهناك يتعرض لتعذيب شديد .

اذا لقد ظلت حرب فلسطين ١٩٤٨ مادة خصبة لعمل المزيد من الافلام التى بدت كانها بمثابة رسالة غفران ،او ندم ، لما اصاب الجيوش العربية ، فحاولت هذه الافلام ان تبرز سبب الهزيمة ، وكادت ان تحول ارض سيناء الى منتصر في افلام منها "طريق الابطال" اخراج محمود اسماعيل عام ١٩٦١ .

وقد عادت سيناء للظهور كارض حرب في افلام تصف العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ لكن انسحب الجيوش ، والجنود فوق سيناء عام ١٩٦٧ ، جعل السينمائيين يتاملون ما حدث كثيرا في الفترة التى استمرت بعد هذه الحرب وحتى عام ١٩٧٣ ، لكن هناك مجموعة من الافلام الحربية دارت كلها فوق سيناء ، وفي هذه الافلام ، فانه تم النظر الى سيناء ايضا على انها سيبيريا ، جاء شباب وجنود وضباط من وادى النيل للحرب فيها ، وانقاذها ، ولعل اشهر فيلم في هذا الصدد هو "اغنية على الممر" لعلى عبد الخالق الماخوذ عن مسرحية لكاتب صار اشهر مؤيد للتطبيع بين مصر واسرائيل فيما بعد .

تدور احداث الفيلم كله في ارض سيناء عام ١٩٦٧ ، حيث يجد خمسة جنود انفسهم محاصرين في احد الممرات الحيوية ، بعد ان مات كل افراد الفصيلة اناء المعارك ، لقد انقطع اتصالهم بالعالم ، وبقيادتهم بعد ان اصاب العطب الجهاز اللاسلكى ، وصارو محبوسين ضائعين فوق رمال سيناء ، اكبرهم الجاويش محمد ، وهو فلاح ترك ارضه ليلتحق بحرب ١٩٥٦ ، وقام الابناء بزراعتها ، وها هو جاء ليحارب مرة اخرى ، فامن سيناء حسب منظوره هو امن الوطن كله ، اما الجندى الثانى فهو الفنان حمدى الذى يود ان يصبح مطربا مشهورا ، فشل في قصة حب ، ووجد في سلاحه السعادة ، اما شوقى فانه مثالى في احلامه، ومسعد النجار الذى يستعد لزواج ، لقد ترك خطيبته وودع امه في دمياط وذهب الى الحرب سعيدا ، يتسم بخفة ظل ملحوظة .

في الفيلم تقوم القوات الاسرائلية بالهجوم على الممر ، ويستشهد اربعة منهم فوق رمال سيناء، بينما يضرب جرس اللاسلكى ثم يصمت تماما .

ابتداء من هذا الفيلم ، وبالنظر الى مجموع الافلام التى تم انتاجها عن انتصار اكتوبر "العبور" سوف نلاحظ ان مصر باكملها تبلورت في سيناء ، وان وجود كيان الدولة تمثل في الحصول على النصر ، واستعادة جزء من سيناء ، وان العبور الذى قام به الى شرق قناة السويس ، وبمجرد ان تطأ اقدام جنودنا مساحات صغيرة جدا من سيناء هو انتصار لمصر باكملها ، وقد عبر احسان عبد القدوس من خلال اقصوصته

"الرصاصة لا تزال في جيبى" ، عن مكانة سيناء ، عندما قام بدو الصحراء بايواء الجندى محمد في خيامهم ، وساعدوه ان يعود الى الوادى ، بعد ان ارتدى ملابسهم ، وقد كانت اقصوصة بمثابة اعلاء لمكانة اهل سيناء الوطنية و فهم يساعدون في افلات محمد من الاسر ، اما الفيلم الذى اخرجه حسام الدين مصطفي عام ١٩٧٤ ، فلم يعط لابناء سيناء الاهمية نفسها التى رايناها في النص الادبى ، واهتم بمعركة اكتوبر في المقام الاول ، وفي بقية الافلام التى تم انتاجها عن هذه الحرب .

والغريب ان السينما المصرية في كل الافلام حول نصر اكتوبر ، قد نظرت فقط الى ارض سيناء ، دون النظر الى سكان هذه الارض ، باعتبار انهم مصريون يعيشون في ظل الاحتلال الاسرائيلى ، وكان الهدف المعلن من حرب اكتوبر ، هو تحرير سيناء ، دون ان نرى سيناوياً واحداً في افلام مثل "ابناء الصمت" ،و "بدور" ، "الوفاء العظيم" ، "الرصاصة لا تزال في جيبى" .. وغيرها .

ولعل ابرز فيلم في هذه الفترة ، راينا فيه اهالى سيناء هو "وضاع حبى هناك" ، اخراج على عبد الخالق عام ١٩٨٢ ، وقصة الفيلم تؤكد مسألة النظر الى سيناء على انها اقرب الى سيبيريا ، فالفيلم مقتبس من الفيلم الايطالى "زهرة عباد الشمس" لفيتور دى سيكا عام ١٩٦٨ ، الذى تدور احداثه حول زوجة ايطالية تذهب الى روسيا بحثا عن زوجها

الذى كان يحارب في الجبهة السوفيتية ولم يعد من الحرب ، ولم تات عنه اخبار .

رأت السينما المصرية ان الزوجة المصرية التى فقدت زوجها في حرب ١٩٦٧ ، اقرب الى الزوجة الايطالية ، فتقرر السفر الى سيناء بحثا عن زوجها عقب نهاية الحرب ، فالزوج حسين لم يعد مع العائدين من الحرب ، وتنتاب الزوجة الأحاسيس انه لم يمت ، ولا يزال على قيد الحياة ، لا تكف نادية عن السؤال عنه لدى الجهات المسئولة ، خاصة القوات المسلحة . تمر السنوات ، وبعد حرب اكتوبر وعقب مباحثات الكيلو ١٠١ ، تسافر الزوجة الى سيناء مع وفد من الصحفيين الاجانب بحثا عن زوجها ، وهنا نعود لنرى ابناء سيناء الذين لم تحدثنا السينما عنهم كثيرا ، وتجاهلتهم ، خاصة في افلام الحرب ، وفي الكثير من القبائل البدوية ، تعرض نادية صورة على كل من تقابلهم وبعد بحث طويل ترشدها احدى البدويات الى مكانه ، حيث انها قامت بحمايته من قوات الاحتلال الاسرائيلى .

تفاجا نادية بان "حسين" قد تزوج من امراة اخرى ، سيناوية ، مثلما تزوج الجندى الايطالى من امراة روسية عثرت عليه فوق الجليد ، اما السيناوية فقد وجدت الزوج مصابا برصاصة في صدره ، وفاقدا للذاكرة بعد احدى الغارات ، فنقلته الى منزلها ، وعاش معها بعد ان تزوجها ، وعند مغادرتها المنزل تقابل نادية "حسين" فتجده فاقدا الذاكرة تمام ، لا يتعرف عليها ، وينشغل بمداعبة ابنه الصغير ، فتعود مكسورة الجناح .

وفي الفيلم الايطالى ، فان القوات العسكرية الفاشية دخلت روسيا، وهزمها الجليد ، و لا اعتقد ان جنديا مصريا قد توغل الى مسافة كبيرة في حرب اكتوبر ، مثلما صور لنا الفيلم .

في هذه الفترة ، تم انتاج فيلم جديد يحمل اسم شبه جزيرة الجزيرة العائدة تحت اسم "اسود سيناء" عام ١٩٨٤ ، للمخرج الايرانى فريد فتح الله ، وهو فيلم مفقود ، لا نعرف اين يوجد الان ، تدور احداثه اثناء حرب الاستنزاف ، فالرقيب فهد والد النقيب منصور قائد احدى فصائل الصاعقة ، يكلف فهد اثناء حرب الاستنزاف بالعبور الى سيناء لجمع المعلومات عن القييادة العسكرية الاسرائيلية ، ويعرف على الفتاة السيناوية مريم ، يعود فهد بعد القيام بمهمته تدمير مقر القيادة الاسرائيلية وينجح في مهمته الا انه يقع في الاسر ، وتساعده مريم في اخفائه عن قوات الاحتلال ، حتى تنشب حرب اكتوبر ، ويتحقق ، ويعود منصور الى اسرته .

بعد مبادرة السلام ، تغيرت صورة سيناء في الحياة ، وفي السينما ، وتحولت الى مزار سياحى كبير للمصريين والاجانب ، الا ان بعض الافلام تعاملت معها على انها ارض البطولات ، والتجسس ، وفي اغلب الافلام السابقة على معاهدة السلام ، لم يكن هناك تمييز بين جنوب شبه الجزيرة ، وشماله ، وقد حظى الشمال ، خاصة منطقة العريش باهتمام ملحوظ في قصص الافلام ، باعتبار ان اسرائيل جاءت بجيوشها

من هذه المنطقة ، ولم نبدأ في مشاهدة جنوب سيناء الا من خلال افلام بعد عودة سيناء كما سنرى .

لكن لا يمكن اغفال موضوع ، ومكانة فيلم "اعدام ميت" لعلى عبد الخالق عام ١٩٨٥ ، وهو مأخوذ من احدى قصص الاستخبارات الحقيقية ، والقصة تؤكد على الهامشى لسيناء بشكل عام ، فهى ارض عمليات ، تدار من تل ابيب والقاهرة ، وتدور احداث الفيلم قبل حرب اكتوبر في اطراف سيناء من خلال احدى الاسر البدوية ، وفي الفيلم معنى كبير ، وفاضل ، حول المشاعر الوطنية لبدو سيناء ، حين يقوم الاب بطعن ابنه الخائن حال تسلمه اياه ، وقوله له ، وهو يطعنه متألما : "بيدى .. لا بيد غيرى" لقد اراد الاب ان يغسل عار الخيانة التى ارتكبها ابنه من خلال غسل هذا العار بالسكين ، رغم ان منصور هو ابنه الوحيد.

تنتقل الاحداث كما اشرنا ، بين القاهرة ، وتل ابيب ، لكن الجزء الاكبر من الاحداث يدور فوق ارض سيناء ، وهناك اشارة في الفيلم تدور احداثه في غزة ، باعتبار ان هذا الجزء من الارض ، بالاضافة الى سيناء كلها ارض احتلها الاسرائيليون ، وقد تم تبادل الجاسوس منصور برجل الاستخبارات المصرى عز الدين عند حدود قناة السويس ، باعتبار ان عز الدين شبيه بمنصور وقد تم غرسه وزرعه في سيناء ، وسط اهله ،، من اجل التوصل لمعرفة اسرار حول مفاعل ديمونة ، وقد لجات فتاة الاستخبارات الى حيلة احلال عز الدين محل منصور للتشابه الملحوظ

بين الشابين ، ووجد عز الدين نفسه يعيش في مجتمع بدوى ، متشدد في سلوكه ، وعاداته ، كما يجد نفسه واقعا في غرام شقيقه عز الدين ، التى لا تلبث ان تكتشف حقيقته من خلال عدم وجود علامة في اصبع قدمه ، وعندما يكتشف الاب وجود علاقة ما بين الابن المزعوم ، وشقيقته ، فان قلبه ينكسر بشكل ملحوظ ، ويردد : " ياه .. ما بين الاخ واخته ، ثم يكتشف الحقيقة ، ويكظم الغيظ في قلبه ، حتى يتم تبادل الجواسيس ، ولا يصبر الاب على ان يقوم بواجبه ، فهو يطعن ابنه عند اول عناق يتم بينهما . وليس بعد ذلك وفي هذا صورة ايجابية لموقف ابناء سيناء في السينما ، بالاضافة الى مساعدتهم للجندى محمد في الاقصوصة التى كتبها احسان عبد القدوس .

سيناء هنا هى ارض عمليت ابان حرب الاستنزاف ، وهى ايضا ارض تماس فيها عمليات التجسس ، فحرب الذكاء بين الموساد ووكالة الاستخبارات المصرية ، تنتقل من المكاتب الى ارض سيناء ، فعز الدين ينجح في زيارة مفاعل ديمونة ، ويقوم بارسال رسالة الى ادارته ويرتاب فيه ظابط الموساد ، ويقوم بالقبض عليه ، ثم تستمر الاحداث .

اما بعد معاهدة السلام ، ونزول المصريين الى سيناء خاصة الجنوب ، فان الافلام المصرية صارت اقرب الى التحذير في المقام الاول ، وذلك قبل ان يتم انتاج الكم الهائل من الافلام السياحية الروائية التى تدور احداثها في شرم الشيخ ، وجنوب سيناء ، وهى تحتاج الى دراسة منفصلة لاهمية هذه المرحلة .

بدت سيناء منطقة مليئة بالمحظورات ، والتحذيرات خاصة للمصريين الذين يذهبون الى هناك ، من خلال افلام عديدة ، وكثير، لكننا سوف نتوقف فقط عند فيلمين لهما اهميتهما ، ورغم العدد الكبير من الافلام ، فان سمة التحذير تبدو هنا واضحة ، في الفيلمين وهما "الحب في طابا" اخراج احمد فؤاد عام ١٩٩٢ و " فتاة من اسرائيل " لايهاب راضى ١٩٩٩ ، اما عناوين الافلام الاخرى فهناك "الطريق الى نويبع" .

"الحب في طابا" فيلم يحذرك من عمل اى علاقة من اى نوع مع البنات الاجنبيات اللاتى من السهل ان يتم الالتقاء بهن ، في اى رحلة سياحية تقوم بها الى سيناء ، خاصة بالنسبة للشباب، مثل الدكتور فخرى الطبيب في احدى المستشفيات والمتزوج عن حب ، وينتظر مولوده الاول ، وايضا مصطفي الموظف بالمستشفي نفسها وزئر النساء المحنك، الذى يرفض الاستقامة ، اما الثالث خالد ، فعلى النقيض تماما، فهو رومانسى خجول ، في حياته قصة عاطفية ستؤدى الى الزواج، هؤلاء الشباب الثلاثة يسافرون في رحلة سياحية تستمر عشرة ايام الى سيناء ، اى اننا في فيلم ينظر الى الثلاثة يسافرون في رحلة سياحية تستمر عشرة ايام الى سيناء ، اى اننا في فيلم ينظر الى سيناء كمنتجيع سياحى ، ولا نرى فيه ابناء شبه الجزيرة ، فنحن ننتقل بين الاتوبيس السياحى والفندق ، واماكن السياحة ، حيث ستقوم علاقة كاملة مع ثلاث بنات فاتنات ، اجنبيات طوال الرحلة ، ثم يغادرون الشباب ، وهم يرددن : نحن مصابات بالايدز ، ويوحى الفيلم ان سيناء هى منطقة خطر

، وان الوقوع في تجربة مع بنات قد تؤدى الى كوارث ، كما ان الفيلم يؤكد ان البنات اتين من الحدود الاسرائيلية المصرية ، وان لديهن "مهمة" هى اصابة شباب مصر بالايدز ، وقد عاش الشباب في ظروف بالغة الصعوبة ، بعد العودة الى القاهرة ، والاحساس بانهن مصدر عدوى لمن حولهم ، ، وان الايدز سوف ينتشر بقوة في المجتمع بصرف النظر عن الموت القادم حتما .

الفيلم يحذر من التطبيع ، وقد اتضح ذلك مرة اخرى في ظروف متشابهة في فيلم "فتاة من اسرائيل" فنحن ايضا امام مجموعة من الشباب ، يذهبون الى طابا ، في جنوب سيناء ، في رحلة سياحية ، وهناك ايضا اشخاص اخرون ، مثل الزوجين اللذين فقد ابنيهما الاكبر فوق ارض سيناء في عدوان يونيه ، بالاضافة الى رجال اعمال ، يتاجرون بشكل مباشر مع اسرائيل.

نفس الاتوبيس السياحى موجود ، وايضا فندق طابا الذى تم استرداده من سيناء ، وشراء حق الانتفاع به ، وقد كانت زيارتى مع وفد نقابة الصحفيين عام ١٩٨٦ الى هذا المكان ، ورايت الادارة الاسرائيلية متمثلة في العديد من الاشخاص ، مثل مديرة العلاقات العامة التى كانت تتقن ثمان لغات ، من بينها العامية المصرية ، اى انه في مثل هذا الفندق فانت تجد نفسك بشكل مباشر ، في مواجهة الاسرائيليون وعليك ان تتعامل معهم ، مهما كنت رافضا لهم ، وقد بدا ذلك بوضوح لدى الشباب ابطال الفيلم واغلبهم صغير السن قليل التجربة ، ومنهم

المهندس طارق الذى ينقذفتاة اسرائيلية من الغرق ، وتقع في هواه .. ويسعى ابوها الى ان ياخذه معه الى اسرائيل ، تمهيدا لتسفيره الى الولايات المتحدة ، كما ان هناك شابا سرعان ما يصبح صديقا للشباب الاسرائيلى ، ويذهب معهم ، ويقضى سهرات ماجنة ، بينما اغلب الشباب الذى لم يعش زمن الحرب ، يرفض التواصل مع الاسرائيليين .

تدور الاحداث هنا في اطراف سيناء ، التى صارت بمثابة منطقة سياحية جذابة ، للاسرائيليين اولا ، ثم المصريين والاجانب ، لكن الافلام الاولى التى دارت احداثها في هذه المنطقة امتلات بالتحذيرات ، سواء من الايدز او التطبيع ، وفي هذه الافلام ، كما اشرنا ، اختفي سكان سيناء من البدو ، ولم نرهم يقومون باى دور وقد ذكرنى هذا بحوار دار بينى وبين احد سكان العريش في مخيم الشباب في النصف الثانى من التسعينات ، حين اشار بدون تلعثم ان ايام الاحتلال الاسرائيلى كان افضل بكثير من عودة المصريين الى سيناء ، واخذ يعدد لى التسهيلات الادارية لقوات الاحتلال والتعقيدات الادارية المقابلة للمصريين عقب معاهدة السلام .

جنوب سيناء

حقيقة يجب أن نعترف بها مهما كانت حدود عنادنا ،أن المصريين قد تعلموا أشياء مثيرة من الاسرائيليين خاصة بعد إستعادة سيناء ، وذلك في مجالات عديدة ،خاصة في الزراعة والسياحة .

فالإسرائيليون هم أول من زرع سيناء بنظام التنقيط ، الذى يوفر كميات كبيرة من المياه ، ويمكن من خلاله عمل مشاريع زراعية متطورة ، جعلت من شمال سيناء مساحات خضراء ، كما أن المصريين حين عادوا الى سيناء فوجئوا بالمستوطنات التى هدموها ، وكانت نموذجاً مبتكراً لحياة أفضل ، وحين وصل المصريون إلى جنوب سيناء اكتشفوا أن الدولة العبرية قد اسستفادت سياحياً كثيراً من المنطقة فأقاموا الفنادق الضخمة والمشاريع السياحية .

وللأسف الشديد فإننا باعتبار أن مرآة للمجتمع ، فلم نر قط منطقة جذب سياحية في اى من الافلام التى تدور أداثها في سيناء ، خاصة الجنوب ، وللحق ، فإن المصريين سرعان ما استفادوا من هذه الظاهرة ، ووضعوا جنوب سيناء بشكل خاص نصب اعينهم ،فاقيمت

القرى السياحية ، والمشاريع المتطورة ، وحدثت طفرة ملحوظة في بلادنا..

حدثت امور عديدة في الموقف نفسه ، تعمير الساحل الشمالى ، وساحل البحر الاحمر ، خاصة الغردقة ، ثم جنوب سيناء ، خاصة شرم الشيخ ، وقد توافق هذا التعمير مع ظهور طبقات اجتماعية مصرية شديدة الثراء ، ورجال اعمال اغتنموا كثيراً هذا التحول ، وتلك المشاريع وتكونت طبقات اجتماعية جديدة ، يجب ان تصنع الافلام من اجلها ، وان تدور قصص الافلام الجديدة في الساحل الشمالى ، او الغردقة ، أو شرم الشيخ ، وما يليها من مناطق سياحية ، ومن أجل هؤلاء ايضاً تم بناء قاعات السينما في المراكز التجارية الجديدة ، كى تكون اسعار المشاهدة متوافقة مع المكانة المالية لهؤلاء المشاهدين الجدد ، الذين يجب أن تنتج لهم شركات الانتاج افلام من الاثرياء ، والاماكن التى يقضون بها اجازاتهم .

من اول هذه الافلام "الجنتل" لعلى عبد الخالق ١٩٩٦ ، الذى يذهب فيه افراد من حى شعبى الى قرية مارينا في الساحل الشمالى ، وينبهرون مثل المشاهدين .. وسرعان ما تم تصوير الافلام التالية في اماكن مفتوحة ، جاذبة للعين اكثر ، خاصة شرم الشيخ ، باعتبار ان قرى الساحلالشمالى كانت مغلقة ، وضيقة ، قياساً الى مدينة مفتوحة من طراز شرم الشيخ ، التى بهرتنا بشكل ملحوظ في فيلم "شورت وفانلة وكاب" ، وان كان اول فيلم تم تصويره في جنوب سيناء هو "فتاة من اسرائيل"

لايهاب راضى ١٩٩٨ ، ولاشك ان كل من ذهب الى فندق طابا او المناطق المجاورة لها في تلك الفترة قد اصابته الصدمة الحضارية التى حدثت لبعض الشباب الذين ذهبوا الى طابا ليروا ، لاول مرة ، فندقاً بهذه الفخامة ، وقد حدث هذا لى كما اشرت سابقاً بالكتاب وهكذا تعاملت السينما بمنظور سياسى مع جنوب سيناء في هذا الفيلم الذى تبدأ احداثه بالجرافات الاسرائيلية تدفن جنوداً مصريين في عام ١٩٦٧، من بينهم الشقيق الاكبر للشاب الذى سيأتى الى طابا في رحلة سياحية ، وفي هذا الفيلم كان الشباب الذين جاءوا الى جنوب سيناء من ابناء الطبقة الميسورة الحال الى حد ما بالاضافة الى احد رجال الاعمال ..

لكن السينما ما لبثت ان نفضت موضوعاتها من السياسة في الكثير من الافلام التالية التى تم تصوير احداثها في شرم الشيخ ، صحيح انه تم، "اختطاف صورى" لابنة وزير عربى في فيلم "شورت وفانلة وكاب" لكن ما لبث الامر ان تم حله ، وهذا الفيلم كله بمثابة تعرف على نموذج جديد من الحياة في احدى بقاع مصر ، شباب جاء للبحث عن وظيفة ، وهو يعمل في مكان سياحى مفتوح ، من الشباب والبنات ..

عرض هذا الفيلم في عام ٢٠٠٠ ، اى في بداية القرن الجديد ، وعلى ابواب العقد الاول من هذا القرن ، وهى الفترة الزمنية التى شهدت زحفاً سينمائياً تجاه جنوب سيناء ، باعتبار ان فيلماً مثل "بيتزا بيتزا" لمازن الجبلى ١٩٩٨ ، دارت احداثه في الغردقة ، لكن في فيلم سعيد حامد ، رأينا ما حدث سياحياً في جنوب ، خاصة شرم الشيخ ، ففي هذه

المدينة البيضاء ، المغموسة بلازوردية البحر ، وشموخ الجبال رأينا نموذج الحياة الجديد الذى لم يعتده المصريون ، حيث اكتشف الشباب ان هناك فرص عمل مفتوحة امام كل منهم ، من يود استغلال طاقاته في العمل ، او المغامرات النسائية ، وقد كشف الفيلم ما حدث في السنوات الاولى في جنوب سيناء للشباب ، وان كنت اعرف ان الامور تضخمت فيما بعد ، من اللقاءات بين الشباب المصرى ، والسائحات ، او الزواج السريع الذى قام ، وقضايا الطلاق كما روت لى محامية تخصصت في هذا النزاع من القضايا .

في هذا الفيلم ، هناك ثلاثة شباب كنماذج من مئات النماذج التى وجدت لها ، بشكل مؤقت ، وظائف في شرم الشيخ ، هؤلاء الشباب هم خالد وعبد المنعم وعصفور في البداية يشتركون في ادارة مقهى يديره عصفور ، اما خالد فانه يعمل مرشداًسياحياً ، ويعمل عبد المنعم مدرباً للغطس ، لكل منهم علاقاته النسائية ، فأحدهم يقرر الهجرة الى الولايات المتحدة مع سائحة امريكية ويترك زميلته المصرية ، اما خالد فإنه يدافع عن رباب التى جاءت الى شرم الشيخ بصحبة ابيه الذى يشارك في مؤتمر للسوق العربية ..

وقد أخذ الفيلم الخط العام لسلسلة افلام امريكية ومصرية مستوحاة من "حدث ذات ليلة"لفرانك كابرا **١٩٣٤** ، ومن هذه الافلام "يوم من عمرى" ، و"ليلة شتاء دافئة" ، فالأب يود ان يزوج ابنته من شاب لا تريده ، وخال ينقذ رباب من شاب تحبه اراد الاعتداء عليها ،

فتقع في حبه اثناء رحلة هروب ، وقد وجد الفيلم في هذا الهروب فرصة طيبة للتعرف على ما يسمى بسياحة الصحراء في جنوب سيناء ، حيث السهول والجبال ، والبحر، والتشكيلات الصخرية ، وقد تم تصوير مساحات زمنية طويلة تعبر عن طبيعة هذه ، وكأنما الفيلم يؤكد ان بحر شرم الشيخ ، والصحراء المحيطة بها صالحة للاستخدام الرومانسى ، حيث تمت مشاعر الحب بين خالد ورباب ..

وبالاضافة الى المكان ، فإن هذا الفيلم ، واعمال سينمائية اخرى، قد صورت كيف يتعامل بعض مع الفرص الجديدة التى تتاح لهم ، فأحد الشباب يرسل صورة له الى صديقته الاجنبية و على أنه صاحب عضلات، بالغ القوة ، أما المرأة نفسها فإنها عجوز ضحكت بدورها على الشاب ، وصدمته حين جاءت الى شرم الشيخ .. وقد تكررت هذه الصورة بشكل واضح في أفلام تالية ، لعل أبرزها " سنة اولى نصب " لكاملة ابو ذكرى عام ٢٠٠٤ ، الذى تدور أغلب احداثه في الغردقة ، وليس في شرم الشيخ .. لكن ما فعله الشابان هنا لا يختلف كثيراً عن احداث أفلام تدور في جنوب سيناء ، وفي الحقيقة فاننى تصورت في البداية انه يدور في شرم الشيخ ، حيث قرر الشابان النصابان الذهاب الى هناك ، فالأمكنة متشابهة ، من منتجعات سياحية ، ونزلاء هم من الاثرياء اذا كانوا مصريين ، او هم من الاجانب الباحثين عن المتعة ، خاصة النساء ، وقد تعمد خالد واحمد اصطياد المسنات من اجل ان يبيعوا اجسادهم لهؤلاء النساء مقابل المال .. سواء كان الحدث في الغردقة ، أو شرم الشيخ ، فإن السينما ، اتجهت الى اطراف مصر

لتصوير الأماكن السياحية ، ولعل ذهاب " اللمبى" لوائل احسان مع امه الى شرم الشيخ عام ٢٠٠٢ من اجل البحث عن فرصة للكسب السريع، وتأجير الدراجات للسائحين هو ايضاً محاولة للاستفادة من تصوير الأماكن السياحية المفتوحة حيث بدا التباين واضحاً بين المنطقة العشوائية التى يسكن فيها الليمبى ، وبين ذلك الافق المفتوح عند البحر في جنوب سيناء ، لكن اقامة الليمبى وأمه في المكان لم تستمر وسرعان ما فشلا وعاد مرة اخرى الى القاهرة ..

مثل هذا المشهد يوضح الى اى حد أرادت السينما الاستفادة من التغير الملحوظ في اذواق المتفرج المصرى ، وظهور نوع جديد من المشاهد ، فقبل هذه الأفلام ،كانت الايرادات تعتمد على سعر تذكرة لا يتجاوز العشر جنيهات في دور العرض الموجودة داخل المدن ، أما " اللمبى" فقد تم عرضه في العشرات من المولات ، ذوات الاسعار الاعلى، ولعل هذا يفسر انه اول فيلم يحقق هذا المبلغ الكبير الذى اعلن عنه ، ٢٧ مليون جنيه ، اى ان السبب كان سبب كثرة الاقبال على رؤيته من الجمهور الذى يرتاد المولات ، ولم تكن المولات الكبرى مثل سيتى ستارز قد تم افتتاحها بشكل كامل حتى هذا التاريخ .

واذا كانت بعض الافلام قد دارت احداثها في سيناء (الشمال او الجنوب) بعيداً عن السياحة مثل "عبود على الحدود" لشريف عرفة عام ١٩٩٩ ، فانه في عام ٢٠٠٣ ، تم انتاج افلام ركزت اكثر على ابناء تلك الطبقة الجديدة ، التى تدفع ابناءها للإلتحاق بالجامعات الخاصة ،

والذين يذهبون في رحلات جامعية الى الأماكن السياحية في سيناء ، ومنها "ازاى البنات تحبك" لأحمد عاطف ، وفيلم "الباشا تلميذ" لوائل احسان عام ٢٠٠٤ ، وهو المخرج الذى تردد دوماً بأبطاله الى الأماكن السياحية في سيناء ..

وقبل أن نتحدث عن "الباشا تلميذ" فإن هذه المنطقة بدت مبهرة بشكل ملحوظ ، سواء للشخصيات داخل الافلام ، أو للمتفرج سواء كان تردد على هذه الاماكن ام لا ، وقد بدا ذلك ملحوظاً في فيلم "عايز حقى" لأحمد جلال عام ٢٠٠٣ ، فمن أجل اغراء الشاب الفقير صابر الطيب ، الذى سيبيع وطنه في صورة صكوك ، فان الجهة الاجنبية الممولة لمشروع شراء مصر ، تدعوه، مع زوجته لقضاء وقت ممتع في شرم الشيخ ، وهناك يجد نفسه في شاليه فخم يطل على البحر ، تحوطه حسناوات ، ولا تتورع زوجته وفاء عن ارتداء مايوه قطعتين ، تتباهى به فوق الصخور مما يثير غيرته ..

صارت هذه الدعوة الى هذا المكان السياحى ، الساحر بمثابة رشوة لدفع الشاب الذى يمتلك ملايين التوكيلات من المصريين من أجل بيع وطنهم للاجانب ، ومثلما عاش الليمبى في تناقض بين الحى الفقير الذى يسكنه ، وبين جنوب سيناء ، فإن صابر في "عايز حقى" كان ينام في بداية الفيلم وسط كتل من اللحم تمثل اخوته الصغار الذى يتولى رعايتهم ، وقد اكد هذا التباين على قوة الاغراء الذى تدفع اى شاب فقير كى يبيع وطنه في مزاد عالمى تنامت الظاهرة بشكل ملحوظ في

قصص افلام السينما المصرية في الاعوام الثلاثة التالية ، وهى ٢٠٠٤ ، ٢٠٠٥ ، و ٢٠٠٦ ، ففي السنة الأولى ، ذهب ابطال الافلام الى جنوب سيناء من خلال اكثر من خمسة افلام ، منها "اشتاتاً أشتوت" ، و"زكى شان" ، و"حب البنات" ، و"الباشا تلميذ" .

المصريون الذين ذهبوا الى هناك كانوا يفعلون ذلك إما بدافع العمل ، او الزيارة السياحية السريعة ، والعودة مرة اخرى الى العاصمة ، ومثلما حدث في "اشتاتاً اشتوت" اخراج عمر عبد العزيز ، حيث تدور الاحداث كلها في شرم الشيخ ، من خلال اثنين من الشباب ، ينتقلان في العمل في المدينة السياحية ، خاصة ابراهيم الذى يعمل في احدى القرى السياحية ، وهو على علاقة عاطفية مع دنيا ابنة صاحب القرية السياحية، يعيش في تباين ملحوظ ، يعكس احوال العمل في المدينة ، ففي يوم هو مسئول مرموق في القرية السياحية ، وفي اليوم التالى ، فإن يعمل في تنظيف المطبخ ، او وظائف اخرى اقل وضاعة ، وقد لجأ الفيلم الى اجواء الفنتازيا ، وسط سحر شرم الشيخ ، حيث ان ابراهيم يلجأ الى اعمال السحر ، فيظهر له ابن ملك الجان ، وفي هذه الاجواء ، نرى كيف يعيش الانس ، والجنيات في شرم الشيخ ، حيث تبدو الجنية دوماً بالمايوه البكينى ، وبالغة الفتنة ، وذلك باعتبار ان الجنيات اللاتى يظهرن في المدن المحتشمة ، يمكن مثلما حدث في افلام عديدة منها "عروس النيل" لفطين عبد الوهاب .

هو موضوع تقليدى ، شغفت به السينما المصرية دوماً ، مثل العلاقة بين الشغال ، وابنة صاحب العمل ، كما رأينا في "تعالى سلم" لحلمى رفلة عام ١٩٥٢ ، وابضاً العلاقة بين ابنة الجان ، والانسان مثلما رأينا في "عفريتة هانم" من قبل ، اى ان الجديد هنا ، هو المكان ، هو يختلف عن الاسكندرية ، التى تم الابتعاد عن التصوير فيها في هذا العقد من الزمن ، وبدت شبه كفر سياحى ، قياساً الى ما ظهرت شرم الشيخ في هذه الأفلام ، حيث الاتساع ، وجمال لون البحر ، والحرية الملحوظة للنزلاء في القرى السياحية ، وفي شوارع شرم الشيخ .

في العام نفسه ، ذهب طلاب احدى الجامعات الخاصة الى جنوب سيناء من خلال "الباشا تلميذ" والذى تدور احداثه كلها في احدى الجامعات الخاصة ، وفي هذا الفيلم ، نرى مخاطبة مباشرة مع الجمهور المضمون الذى يذهب الى قاعات المولات في تلك المرحلة ، فهذا النوع من الطلاب القادرين ، من خلال عائلاتهم ، على ان يدفعوا مصروفات كثيرة من أجل الدراسة ، يجب ان تكون لهم قاعات خاصة وموضوعات سينمائية تخصهم ، والفيلم يروى ان ادارة هذه الجامعة تقوم بالتهريب والاتجار في المخدرات ، وان الرحلة الى سيناء ، هى للتمويه من اجل اتمام عملية التهريب ، بينما يقوم الشباب بالتنزه في جنوب سيناء ، والاستمتاع بالرحلة ، فإن انتقال شحنات المخدرات تتم بسرية دون ان يدرى الطلاب ، وفي لحظة حاسمة في الفيلم ، فإن الطلاب المنحرفين ، يتغير سلوكهم ويساعدون ظابط الشرطة المتخفي في القبض

على العصابة التى يتكون اعضاءها من الاساتذة والاداريين في الجامعة الخاصة .

اذن فحسب موضوع هذا الفيلم ، فإن جنوب سيناء صار مكاناً خصباً للسياحة والرومانسية وللتهريب ، وقد ذهب الشباب في افلام اخرى في العام نفسه الى هناك بهدف تقوية علاقات عاطفية ، مثلما حدث بشكل ملحوظ في فيلم "حب البنت" لخالد الحجر ، وايضاً في فيلم "زكى شان" لوائل إحسان ايضاً الذى عرض في يداية عام ٢٠٠٥ ، حيث رأينا اسرة ميسورة ، أماكن نزهاتها هو شرم الشيخ ، حيث تذهب شيرين في صحبة حبيبها الى شرم الشيخ ، ولان زكى بمثابة الحارس الشخصى للفتاة واخيها ، فانه يذهب بصحبتها الى هناك ، حيث تبدو الحياة اقرب الى طبيعة البيئة التى تنتمى اليها شيرين ، ابنة صاحب احدى المؤسسات الاقتصادية ، وفي شرم الشيخ تبدو شاليهات القرية السياحية فخمة ، وملائمة كى يقوم حازم باغواء فتاته ، ومحاولة اغتصابها، الا ان زكى يقوم بانقاذ الفتاة من بين براثن الشاب الذى انخدعت فيه تبدو الأماكن القريبة في هذا الفيلم مختلفة تماماً عم اعتاد ان يراه المتفرج في افلام الاثرياء طوال عمر السينما المصرية ، وبدا من الواضح كيف استغل الرأسماليون الجدد اموالهم في بناء المدن السياحية في اطراف مصر ، وهى الأماكن التى كانت دوماً مواقع للحروب بين مصر واسرائيل ، وتحولت الجبال ، والرمال ، والشواطىء، الى جنات ارضية ، ومنتجعات ، وقد بدا ذلك واضحاً في فيلم "حريم كريم" اخراج على ادريس في نفس العام ، واذكر اننى كتبت من قبل انه من الرائع ان

ترى في كل هذا العالم بثمن تذكرة واحدة ، اربع بنات جميلات ، واماكن سياحية مفتوحة ، وكافة مظاهر الاحتفاليات ، والسياحة ، ولم أكن قد ذهبت بعد الى شرم الشيخ ، ولعل القرية نفسها التى دارت فيها أحداث فيلم "زكى شان" قد داررت فيها احداث هذا الفيلم بمكوناتها المعمارية ، وظواهرها السياحية ، وقد تفنن الفيلم في تصوير معالم هذه القرية وشرم الشيخ بشكل عام، فهناك شواطىء طويلة ممتدة ، ترى في خلفياتها النساء وهن ينطلقن بملابس البحر ، وهناك امكانية للتزلج فوق مياه الخليج ، والابحار فوق زورق ، وهناك رقص وغناء في الملهى الليلى ، في كل هذه الاجواء يحاول كريم ، استاذ اللغات في احد المراكز الثقافية ، استعادة طليقته ، وتبدو العلاقة بينهما اقرب الى الجذب والشد ، يتمنى كل منهما ، الرجوع الى رفيقه السابق ، لكن الامور لاتتم ، يغنى كرم من اجلها وسط القرية السياحية ، وتبدو الشاليهات والابنية باضوائها الصناعية اقرب الى ديكور التصق بالطبيعة بشكل جذاب ، وفي شرم الشيخ يلتقون بالزميلة الرابعة نيفين ، وكما اشرت فهل هناك اجمل من ان ترى وجوه اربع بنات هن داليا البحيرى ، بسمة ، علا غانم ، ريهام عبد الغفور ، يرتدين أخف الملابس ، ويضغطن عاطفياً على كريم ، تطمع بعضهن في الحصول عليه وسط علاقات عاطفية تدفعها الغيرة ، وحب الامتلاك .

لم تتوقف كاميرات السينما عن الذهاب الى جنوب سيناء لتصوير كل الافلام او بعض احداثها في منتصف العقد الأول من القرن الحالى ، في أفلام عديدة ، وجعلنا من الممكن ان نقول ان الواقعية المصرية قد

تغير شكلها ، أو مسمياتها ، فهذا هو الواقع الجديد ، يذهب الشباب للعمل هناك ، مثلما رأينا عام ٢٠٠٦ في اربعة افلام على الاقل ، منها "زى الهوا" لأكرم فريد ، و"الغواص" لفخر الدين نجيدة ، و"ثمن دستة اشرار" لرامى امام ، و"كلام في الحب" لعلى ادريس ايضاً ..

ففي فيلم "زى الهوا" فإن شرم الشيخ صارت مكان عمل وارتزاق ليوسف مهندس الصيانة ، الذى لا تعرف اين كان يعيش من قبل ، وهو هنا يعيش مع اخته المعاقة ، والناس هنا مشكلتها الحياتية الاولى هى عاطفية ، الواقع الجديد في مثل هذه الأماكن يقول أن سلمى كل مشاكلها هو الأحتفاظ بيوسف حتى لا تأخذه منها امرأة اخرى ، خاصة نور الذى يتوافق يوسف معها ، اما اخته فإنها تتعرض لاغواء عاطفي من صديق لأخيها ، في هذا الاطار ، نرى سيناء الجديدة مع المشاهدين في خلفية ، ويعيش مصريون في اطراف وطنهم ، وليست لديهم مشاكل عادية، ولا يعانون من تلوث ، او حاجة ، المهم هو الحب والعاطفة .

وفي هذه المنطقة ايضاً يعيش "الغواص" عمر مع ابنه كريم ، وابيه ، مهنته تتناسب مع البيئة التى يعيش فيها ، وقد اوجد سيناريو الفيلم مهنة لبطله تتناسب مع المكان ، حيث ان المهنة اساسية في فيلم "البطل" لزيفيرللى المأخوذ عنه هذا الفيلم هى الملاكمة ، لكن "الغواص" اوجد للغوص بطولة تثبت مكانة الاب الذى وجد نفسه وقد التقى بطليقته القديمة ، ام ابنه ، التى تزوجت رجلاً ثرياً ، وقد حاول الفيلم ان يؤكد ان

المقتدرين ، والمهرة من العاملين هم الذين في امكانهم فقط التردد على شرم الشيخ ، او العيش فيها لفترة طويلة.

لكن الابطال في فيلم "كلام في الحب" لعلى ادريس جاؤا الى جنوب سيناء من اجل استغلال الخلفيات السياحية لتصوير كليب غنائى جديد، هو التجربة الاولى لمساعد مخرج ، اراد ان يأخذ فرصته الاولى في الاخراج ، وكما نلاحظ ، فإن على ادريس سرعان ما عاد الى هذه الأماكن السياحية ليقدم فيلماً يعتمد ايضاً على الغناء ، وتبدو الطبيعة الخلابة من بحر ، وجبال ، وحمامات سباحة ، ونساء جميلات ، وقد كتبت السيناريو ايضاً زينب عزيز صاحبة سيناريو "حريم كريم" ، وبدا من هذا الفيلم ان جنوب سيناء هى منطقة الجذب .

وعلى طريقة الافلام السياحية التى كانت تصور في السبعينات من القرن الماضى ، انه يمكن التركيز على الطبيعة ، والافق، فإن هناك مفردات بعينها، كان المخرج والمصور يركز عليها ، في ان يتم اكتشاف مصر جديدة، ثم اهمالها من قبل ، مثل الغوص في الاعماق ، والتجوال على شواطىء مليئة بالمايوهات والنساء الاجنبيات ذوات البشرات البيضاء بشكل خاص ، حيث اننى لم ار امرأة زنجية في الخلفيات وعليه فقد راحت على الاسكندرية ، والمصايف الاخرى ، وفي الحالات الاستثنائية كانت قصص الافلام تذهب الى شواطىء مشابهة ، مثل الغردقة التى دارت فيها احداث فيلم "أنت عمرى" لخالد يوسف عام ٢٠٠٥ .

وفي هذه الافلام مارس ابناء الاثرياء رياضتهم المفضلة ، مثل التجوال في الصحراء الغربية من الشواطىء ، والتسابق بمركبات جديدة ، هى من سمات هذه الفترة ، وهذه المناطق ، مثل السباق الذى دار في فيلم "بنات وموتوسيكلات" اخراج فخر الدين نجيدة عام ٢٠٠٨ ، وهو فيلم يعبر عن هذه المرحلة ، فلا توجد قصة مفهومة ، وكل ما يمكن متابعته مجموعات من الشباب والبنات ، جديدات في وجهوهن علينا ، يرتدين ملابس البحر ، ذوات القطعتين ، وكل ما يفعلونه هو التنافس من اجل تحقيق كسب في سباق للموتوسيكلات ، وذلك من خلال خصومة بين محترفين في قيادة الموتوسيكلات ، و"عمر" الذى يتعرض لمضايقات من الخصوم الذين يحطمون له الموتوسيكل ، وتشجعه ريم على ان يبدأ من جديد ، كى يحقق انتصاراً .. ما زلت مصراً ان هذه هى الواقعية التى نقلتها الينا افلام العقد الماضى ، مهما كانت جودة او تفاهة هذه الافلام وقد شاهدنا موضوع سباق الموتوسيكلات ، و لا اسم متداول بين اصحابه ، في فيلم آخر ، لعله الوحيد الذى يحمل اسماً لأحدث المناطق السياحية المشهورة ، بقراها السياحية في شرم الشيخ ، وهو "خليج نعمة" اخراج مجدى الهوارى عام ٢٠٠٧ ، حيث تدور أغلب الاحداث ، فالى هذا المكان جاءت جالا هاربة من زوجها الذى تصور انها غرقت في البحر ، وتقرر المرأة ان تعيش في شرم الشيخ ، وتعيد انتاج اتيليه الفن الذى ورثته عن ابيها ، وتتعرف على ثلاثة من الشبان الطموحين ، هم عز وطارق وفهد ، الذين خسروا أموالهم في احدى العمليات الارهابية ، ودائماً نحن في السينما المصرية امام ثلاثة

شباب وقصصهم المرتبطة بالطموح وتحقيق حلم الزواج والمال .. في هذا الفيلم ، يخرج الشباب مع السائحين الى الصحراء القريبة يتنافسون على قيادة الموتوسيكلات ، وبقضون وقتاً ، كما انهم يعملون ، او يرتادون الصالات للغناء ، ونرى خليج نعمة بديكوره الإلكترونى ، حيث يتحول الجبل ليلاً الى كتلة من الاضواء الاصطناعية ، حول الاشجار ، وفوق دروب الجبل ، وهو منظر يبدو في الواقع بالغ الجاذبية ، مثلما يبدو في الفيلم ، اذا كان الهدف منه هو ان يجعلنا نزور شرم الشيخ لو لم نذهب اليها في الواقع ، او نتذكرها ونعاود مشاهدتها ، إن كان السعداء منا قد ذهبوا يوماً الى هناك . بدت السينما المصرية ، كأنها قد شعرت بالملل من تكرار المكان ، والحدوتة ، وعادت بقوة الى المناطق العشوائية في افلام حققت نجاحاً ملحوظاً منها "حين ميسرة" ، و" الغابة"، و"دكان شحاتة" ، و"كف القمر" ، وتقلص ظهور الأماكن السياحية بشكل ملحوظ ، خاصة بعد يناير ٢٠١١ ، وعندما عادت السينما الى سيناء مرة اخرى عام ٢٠١٢ من خلال فيلم "المصلحة" لساندرا نشات ، رأينا الصحراء القاسية والمطاردات القاتلة بين ظابط شرطة ومهرب، ولا نعرف كيف ستكون الصورة القادمة ، لأنه من الصعب التنبوء بمكوناتها .

السينما الصحراوية

الصحراء ..

يجب أن نعترف أن السينما الصحراوية هى التى عرفنا من خلالها، كثقافة عامة، ما يسمى بقانون الصحراء فيما يعرف بالسلوك الاجتماعى..

فأكثرنا لم يعش بين البدو ، وسكان الصحراء .. ولعل الشغف الذى امتلك اثنين من المخرجين في السينما العربية باجواء الحياة في الصحراء ، كان السبب الاول للتعرف على ما يحدث هناك ، وذلك باستثناء ما يعرفه المتخصصون في هذا المجال ..

هذان المخرجان هما ابراهيم لاما ، ونيازى مصطفي ، ولاشك ان ما حدث مؤخراً في منطقة العامرية من اهل قبيلة بعمل قانونهم الصحراوى الذى ظهر في هذه الافلام هو مجتمع عصرى في المقام الاول .. وان كانت هناك افلام تاريخية تحدثت ايضاً عن الصحراء وقوانينها .

ولم يكن من الغريب ان هذه المجتمعات قد ظلت ثابتة ، ساكنة طوال القرون المتعاقبة فلم يطرأ عليها أى تغير ، لا في الحياة ، ولا في السينما ، بمعنى أن العادات ظلت كما هى ، حيث ان القانون يصوغه

سيد القبيلة ، ولا يمكن الخروج عنه ، وهناك مجلس للعشيرة ، وقد ظلت حيوات هؤلاء الناس دون اى تغير ، فلم تقترب المدينة منهم ، وكانوا في أغلب الأحيان من الرحل ، حتى ولو سكنوا الى جوار مكان . نقلوا اليه قوانينهم وعاداتهم ، ورغم أنه مع تطور المدينة ، صار هناك قانون الوطن العام ، فان حالة الترحال الدائم لهؤلاء الصحراويين ، قد ساعد في ثبات عاداتهم ، وتقاليدهم خاصة في اطار إتباع اوامر القبيلة وشيوخها .

وحسب تاريخ السينما الصحيح ، فإن الفيلم الأولفي تاريخ السينما ، الذى تم انتاجه في مايو عام ١٩٢٧ ، وهو "قبلة في الصحراء" لابراهيم لاما ، خاصة تاريخ القرن العشرين .

من المعروف أن الزمان والمكان في هذه الافلام لم يتغير عبر التاريخ . وان ما يرتديه سكان الصحراء ظل دوماً متشابها ، له سماته المقاربة للبيئة ، المتناقض معها من حيث اللون الاصفر وتناقضاته . كما ان اسلوب الحياة في هذه المجتمعات ساكن ، لم تتغير معالمه وعاداته منذ مئات السنين ، ومنها على سبيل المثال صعوبة التزاوج بين القبائل ، او بين افراد القبيلة وابناء المدينة .

وعليه ، فان الافلام الصحراوية ، بجانبها الافلام المعاصرة تنطبق عليها سمات الفيلم التاريخى ، وفي فيلم "قبلة في الصحراء" لابد ان تصبح هيلدا الاجنبية فرداً من القبيلة الصحراوية ، بعد ان اخضعت قلبها

لشاب صحراوى انقذها من اخطار عصابة قامت بخطفها ، اى ان القبيلة التى اعترضت على زواج واحد من ابنائها من فتاة اجنبية ، قد قبلت ذلك على مضض ، حين ارتدت هيلدا الزى الصحراوى ، وصارت عربية الاسم ، مستعدة ان تهب لهذه القبيلة المزيد من الابناء ..

كان اغلب افلام ابراهيم لاما التى يكتبها ويخرجها من النوع الصحراوى المعاصر ، ومنها فيلمه "معروف البدوى" عام ١٩٣٥ ، و"نفوس حائرة" عام ١٩٣٨ ، و "ليالى القاهرة" عام ١٩٣٩ ، و"ابن الصحراء" عام ١٩٤٢ ، وغيرها . وان كان لاما قد رجع الى الرومانسيات الصحراوية التاريخية مرات قليلة من خلال فيلم مثل "قيس وليلى" عام ١٩٣٩

في افلام ابراهيم لاما بدا قانون الصحراء فارضاً نفسه على سلوك ابناء القبيلة ، فزعيم القبيلة هو صاحب القانون الآمر الناهى ، ليس هناك قانون مكتوب ، وليست هناك بنود في هذا الشأن ، ولكنه قانون شفاهى يطبق على الجميع ، يعكس الى اى حد تكون القبيلة في أحسن حالاتها، وهى منغلقة على نفسها ، لا تتصل بالعالم من حولها إلافيما يتعلق بالتجارة ، وفي كل الافلام الصحراوية لم تكن هناك إشارة الى عقائد ابناء هذه القبائل ، كما انه من النادر ان يتم نفي أحد ابنائها، وان كانت هناك محاولات لاستبعاد شخص غير مرغوب فيه ، مثلما حدث فيما بعد في سلسلة افلام "عنتر وعبلة" .

لذا فإن على بنات القبائل أنتتزوج من ابناء القبيلة نفسها ، ويفضل أن يكون شخص من دمها خاصة ابن العم ، لذا فإنه من العار ان تقترن من شخص أجنبى ، ومن المستحيل أن يحدث هذا ، وقد حدث هذا بشكل واضح في فيلم "رابحة" اخراج نيازى مصطفي عام ١٩٤٣ ، وهو فيلم معاصر ، بمعنى انه لا يدور في التاريخ ، فالفتاة الصحراوية رابحة موعودة لابن عمها ، وهو حامى شرفها ، الإ أنها تقع في حب شاب من المدينة ، يعقد عليها قرانه ، ثم يأخذها الى بيته المعاصر ، وتدور صراعات عديدة حول هذا الحدث ، ينتهى بان يتم اكتشاف اصل بدوى للحبيب ، وسرعان ما يتنازل "ابن العم" عن رابحة الى حبيبها ذى الاصول الصحراوية .

انه عالم منغلق ، لا يرحب ان ينفتح على عالم آخر ، لا أن يدخل اليه أحد ، ولايميل ابناؤه الى الابتعاد عنه ، وسوف نرى أن الديكورات والملابس ، والصحراء ، واللكنة الصحراوية لم تتغير في مجموع هذه الافلام البردية التاريخية والمعاصرة ، فالحصان والسيف والخيمة والنخيل وغيرها اشياء اساسية في هذه المجتمعات ، ويبدو الزمن كأنه لا يمر بالمرة على هذا العالم ، لذا فإن مسألة الشرف ، والأقتران من فتاة لها نفس المكانة الاجتماعية والأعراس ، ومكانة المرأة ، وقوانين اخرى هى أمور ساكنة ، ساكنة استاتيكية .

نجاح كل من ابراهيم لاما ونيازى مصطفي في عمل هذه الافلام ، شجع العديد من المخرجين وايضاً كتاب سيناريو على عمل أفلام

جديدة، منهم بهيجة حافظ ، وأحمد سالم ، وفؤاد الجزايرلى ، لكن كان هناك كتاب بأعينهم كتبوا أغلب هذه الافلام ، باعتبارهم اكثر خبرة بالمجتمع الصحراوى و وعاداته ، وسلوكه، ومفرده اللغوى ، وقد ظل لاما مخلصاً لهذه الافلام بعد رحيل شقيقه بدرلاما عام ١٩٤٧ ، فاسند بطولة اعمال صحراوية جديدة الى ابنه سمير عبد الله ، اما نيازى مصطفي فلم يكف عن عمل هذه الافلام حتى رحيل زوجته كوكا فقدمها في افلام عديدة منها "ليلى العامرية" ، و"سلطانة الصحراء" ، و"الفارس الاسود" ، و"سمراء النيل" ، و"عنتر بن شداد" .

ومن المهم الإشارة الى أن المخرجين في هذه الافلام ، قد تعاملوا مع الموضوعات على اساس انهم في اجواء "وسترن" عربى .. لان الأحداث تكشف عن فارس مقدام يجيد النزال ، مع التركيز على القوانين الإجتماعية الشفاهية المتوارثة ، واغلبها مرتبط بالشرف المصان، والفروسية ، فأجمل ما في الشخصية الصحراوية هى فروسيتها وشاعريتها المتدفقة ، والارادة الفولاذية سواء عند الرجل او المرأة .

وفي الستينات من القرن العشرين ، وفي فترات متقاربة ، رأينا افلاماً عديدة ، يذهب فيها ابناء المدينة الى المدن الصحراوية من أجل تعميرها ، واضافة اجواء مدنية عليها ، سواء من خلال التعدين ، أو التعليم ، وفي هذه البيئة المنغلقة تدور قصص تعكس لنا كيف تحكم القوانين هذه الصحراء ، وساكنيها ، وعلى القادمين من الخارج أن يمتثلوا لهذه القوانين الداخلية الخاصة ، ومن هذه الافلام "كنوز" لنيازى

مصطفي عام ١٩٦٦ ، ثم "زوجة في باريس" اخراج عاطف سالم في نفس العام ..

الفيلم الاول ، كتبته امينة الصاوى ، الذى يدور في الصحراء الغربية ، حيث تعيش البدوية كنوز ابنة شيخ القبيلة فوز ، وتتعرف كنوز ذات يوم على هارون ، وهو أحد الشباب الفقراء من قبيلة مجاورة ، ذات يوم يقرر هارون ان يحفر بئراً جديدة في الصحراء ، من أجل وقاية ابناء قبيلة العطش ، إلا ان رجال فواز يعترضون طريقه ، ويقومون بالتخلص منه بناء على أوامر الشيخ فواز الذى يسعى للسيطرة على الارض ومن عليها . تمر السنوات وتتزوج كنوز من عواد ، وبعد عدة سنوات اخرى ، يصل الى الواحة مهندس شاب اسمه احمد ، ومعه مجموعة من الخبراء لحفر آبار إرتوازية لأبناء القبائل الصحراوية ومن بين أفراد المجموعة هناك هارون الذى لم يمت ، لكنه أصيب وتمكن من الذهاب الى المدينة ، تنمو قصة حب بين احمد وبين زمردة ابنة عواد وكنوز . لكن هذه القصة تبدو مؤرقة للشيخ فواز الذى يقرر قتل أحمد ، يقوم رجال فواز بالاطلاق النار على أحمد لكن الرصاصة تصيب زمردة امام أعين افراد اسرتها وتموت .

وقد انكشفت مساحة هذه الأفلام ، مع تقدم كوكا في السن ، واتجه نيازى مصطفي الى إخراج نوعيات متعددة من الأفلام ، لتبتعد الصحراء بسكانها ومشاكلهم عن شاشة السينما بشكل ملحوظ .

بنات الصحراء

تنام مصر في حضن صحراء ضخمة من ناحية كل الاطراف ، حتى لتكاد أن تعتبر دولة صحراوية ، رغم نهر النيل الذى يخترقها من الجنوب الى الشمال ، ورغم البحار التى تحدها من اعلاها ، ويمينها ، ورغم ذلك فإن كثافة السكان في المدينة جعلت من سكان الصحراء قلة قياساً الى القائمين في المدينة .

وقد شغفت السينما المصرية ، خصوصاً في الربع الأول من عمرها الحالى ، بقصص الصحراء وخاصة حكايات العشق ، و الفروسية، والبطولات المزدوجة بهذه القصص ، وقد جاءت هذه القصص كمحاولة للرد على نجاح افلام الوسترن الامريكى ، وايضاً كتأكيد على أن النيل الصحراوى عند العرب يقابل العنف الغربى لدى رجل الوسترن ...

ولو نظرنا الى أسماء وموضوعات الأفلام التى تم إنتاجها في العشرين عاماً الاولى من صناعة هذه السينما فسوف نجد نجوماً تخصصوا في اداء شخصيات ابطال وبطلات الصحراء ، بل ان الفيلم رقم ٣ من هذه تدور احداثها في الصحراء ، ومن بين هذه الأفلام هناك "قبلة في الصحراء" لابراهيم لاما ، و"سعاد الغجرية" لجاك شوز عام

١٩٤٨ ثم هناك "غادة الصحراء" لوداد عرفي عام ١٩٢٩ ، وهناك ايضاً " معروف البدوى " لابراهيم لاما ١٩٣٥ ، و"ليلى بنت الصحراء" لبهيجة حافظ ١٩٣٧ ، و"الكنزالمفقود" لإبراهيم لاما ١٩٣٥ و"ليلى بنت الصحراء" لبهيجة حافظ ١٩٣٧ ، و"الكنزالمفقود" لإبراهيم لاما ، و"قيس وليلى" لنفس المخرج عام ١٩٣٩ ، ومن الواضح ان قائمة أفلام ابراهيم لاما اكتفت بهذا النوع من الأفلام مثل "ابن الصحراء" ١٩٤٢ ، ورابحة ١٩٤٣ ، وفي عام ١٩٤٤ قدمت بهيجة حافظ فيلمها "ليلى البدوية" ، ثم قدم محمد عبد الجواد مدينة الغجر عام ١٩٤٥ ...

وقد وجدت السينما المصرية المزيد من الذين اهتموا بصناعة هذه الأفلام ، مثل نيازى مصطفي الذى صنع الكثير منها لزوجته كوكا التى تخصصت في دور بنت الصحراء ..

ولسنا هنا بصدد حصر مجموعة الأفلام التى دارت في الصحراء ، او التى دارت حول بنات الغجر ، وهى بالطبع ابنة الصحراء ، رغم أنها عاشت لفترة من الوقت في المدينة ، الا أنها ظلت مرتبطة بالمقام الأول ببيئتها الصحراوية ، ورغم ان انتاج هذه الأفلام قد قل في سنوات السينما المصرية في الفترة الأخيرة ، فان هناك بين وقت وآخر افلام تدور في هذه البيئة مثل "امرأة بلا قيد" لبركات ١٩٨٠ ، و"شمس الزناتى" لسمير سيف ١٩٩١ ..

وبالنظر إلى قصص هذه الأفلام سوف نراها تدور في أغلبها حول نساء الصحراء ، بل الكثير من هذه الأفلام تتسمى باسماء نساء الصحراء ، مثل رابحة ، وعبلة ، وليلى ، وسعاد . ولكن هذا لا يلغى دور الرجل الذى هو في المقام الاول فارس الصحراء ، او رجل المرأة ، وقد يكون هذا الرجل من الصحراء أو قادم من المدينة ، حيث الطبائع تختلف كثيراً بين الطرفين ، لكن هذا لا يمنع من نشوب حب جارف بينهما .

ورغم ان هناك فاصلاً بين الغجرية ، وبنت الصحراء ، او البادية ، فاننا سوف نتعامل معها باعتبارهما كيان واحد، وقد نوضح في هذه الدراسة الفاصل بين الاثنين من خلال ما نعرفه عن قصص بعض هذه الأفلام . فالغجرية امرأة تعيش أكثر تحرراً وتمرداً ، بينما ابنة الصحراء اقرب في صفاتها وملابسها الى الريفية ، حيث تقدس الأسرة ، وتحترم الرجل بكافة صوره ،ولذا فإن ما قلناه حول المرأة الريفية في السينما المصرية يمكن أن ينطبق على بنت الصحراء في أفلام من طراز "العلمين" لعبد العليم خطاب ١٩٦٥ ، وأفلام عن "قيس وليلى" ، و"سمراء سيناء" ، و"رابحة" وغيرها .

وفي بعض هذه الأفلام فإن فتاة الصحراء لا تنتمى بالمرة الى البيئة العربية ، مثل هيلدا الامريكية والتى احبت اعرابياً في فيلم "قبلة في الصحراء" وشفيق هنا رجل بدوى آوى الى الصحراء وصار من قطاع الطرق بعد أن اتهم غدراً بأنه قتل عمه ، وفي الصحراء يلتقى شفيق

بهيلدا مجدداً بعد أن تهاجم عصابته القافلة التى تضم الفتاة الامريكية ، كما أنه ينقذها عندما يخطفها ثلاثة رجال ، وهنا تبدو المراة أداة لكشف بطولة ، وفروسية الرجل ، ومع كل ، فنحن أمام فيلم صحراوى من أفلام الأخوين لاما ، التى حاولت التأكيد على مغامرات الصحراء ، وهى أفلام كثيرة العدد ، أقل قيمة .

أما الأفلام التى أخرجها آخرون في تلك الحقبة من سنوات السينما الأولى ، فإن المرأة كانت اكثر مكانة ، رغم استخدامها كأداة للخطف ، وأنها وسيلة لخلب لب الرجال ، ووجودها يسبب المتاعب بين القبائل ، مثل سلمى في "غادة الصحراء" لوداد عرفي ، فهنا فتاة صحراوية مخطوبة لأبن عمها ، ولكن شيخ إحدى القبائل المجاورة يحبها ، ويطمع فيها ، فيقوم بخطفها بمساعدة رجاله ويتزوجها ، وتنجب له ابنه ، وفيما بعد تتمكن من الهرب مع ابنتها الى قبيلتها . مما يدفع بزوجها الى محاولة استعادتها .

والمرأة هنا سبب لنشوب المعارك بين القبائل ، ولكنها تكشف جانبى الخير والشر لكل طرف في الصحراء . ويعكس الفيلم هنا ان المراة وفية لاسرتها ، ولقبيلتها ، وانها لا تقبل ان تكون سلعة عاطفية ، حتى ولو تزوجت وانجبت من الرجل الذى اختطفها ، فهى تتسم بوفاء ملحوظ ، ولاشك ان وداد عرفي قد أعطى دوراً أكثر أهمية للمرأة في فيلمه هذا ، لكنه لم يتعد ان يقدم فيلماً صحراوياً عن النبل ، والمطاردات بين الرجال من أجل الانتقام لمسألة الشرف .

وبالنظر إلى قصص النساء في الصحراء العربية سينمائياً ، فستجدها تدور في نفس الاطار غالباً ، وبالرجوع إلى الأفلام التى اخرجتها بهيجة حافظ ، فسوف ترى ان مسألة خطف الصحراويات تتكرر، ففي "ليلى في الصحراء"

على سبيل المثال ، نرى قصة حب تتولد بين الفتاة وابن عمها مثلما شاهدنا في فيلم "وداد عرفي" ، وهناك شابان يحضران على البراق خطيب ليلى وابن العم ، فيذهبان لكسرى ويغريانه على خطف ليلى لتكون من نصيبه ومثلما فعلت سلمى ، فان ليلى لا تستجيب عاطفياً لكسرى ، وهناك من يقوم بمساعدتها للهرب من القبيلة ، ولكن محاولات الفرار تبوء جميعها بالفشل ، سواء من قبل بعض نساء قبيلة كسرى ، حيث ان هذا الأخير يكتشف محاولات ليلى للهرب ، ولكن هناك من يستطيع الوصول الى البراق ويخبره بالأمر مما يدفع بالبراق الى إنقاذ ليلى بواسطة رجاله .

وفي فيلم "ليلى البدوية" قامت نفس المخرجة باستعارة قصة الحب التى تربط بين بطلها ، وبين البراق ، وتتكرر نفس القصة بحذافيرها ، فبدلاً من كسرى ، هناك زياد شيخ احدى القبائل الذى يقع في غرام ليلى، فيعرض عليها الزواج ، ولكنها ترفض ، ويقوم أحد الملوك باحتجاز ليلى في قصره ، ولكن إحدى الفتيات تعمل على تهريبها ، ولكن تكتشف المحاولة ، فتحاول الاستنجاد بالبراق ، وينجح الفارس في ذلك ويعود بليلى الى قبيلته ويتزوجها.

ومن الواضح من سرد مثل هذه القصص أن السينما المصرية قد وضعت بطلاتها الصحراويات في نفس الاطار البالغ الضيق ، لا يتسع فيه ، فكأننا امام نفس المعزوفة ، تتكرر بألحان متكررة ، سواء أخرجها رجل من طراز ابراهيم لاما ، او امرأة مثل بهيجة حافظ ، ومن الواضح ان سبب هذا التكرار هو النجاح الجماهيرى الملحوظ لهذه الأفلام ، مما دفع باصحاب هذه الاعمال الى حبس ابداعهم في هذه الاجواء وفي كل هذه الأفلام ، فإن المرأة الأداة تنتقل من رجل لاخر ، ولانها تحب ابن عمها ، الذى هو من قبيلتها ، ودمها فانها تظل وفية لحبها وتحاول الهرب .

واذا كانت هيلدا قد جاءت من خارج الصحراء في فيلم ابراهيم لاما الأول ، فإن رابحة هى ابنة الصحراء في الفيلم الذى اخرجه نيازى مصطفي عام ١٩٤٣ ، أما الرجل هنا ، فهو اشبه بهيلدا انه ابن المدينة الذى جاء الى الرمال باحثاً عن فرائسه التى يصطاها ، لكنه يسقط من فوق جواده ، فتعثر عليه رابحة وتقوم بإسعافه ، والفيلم محاولة لكسر جمود الحياة والتقاليد في الصحراء ، فالغريب ورابحة يلتقيان سراً بل انهما ينتويان الزواج بعيداً عن القبيلة ، مما يدفع بأهل القبيلة الى تزويجها من ابن عمها ، لكنها تهرب في ليلة الزفاف من حبيبها ، ومثلما فعلت "زينب" في فيلم محمد كريم ، وفهمها لمسألة شرف الأسرة الذى لطخته بهربها ، فإن رابحة ، تعود الى القبيلة بعد الزواج ، وهى تعرف تماماً ان مصيرها الموت ، ولكن قبل ان يقتلونها ، يقوم زوجها بانقاذها . ومن الواضح هنا اننا امام نغمة مختلفة قليلاً عن قصص النساء

الصحراويات . فابن العم هنا هو "العزول" ، والهرب هنا يتم من داخل القبيلة الى خارجها من أجل الزواج برجل غريب ، ويحاول الفيلم وضع حل ساذج من أجل اقامة شرعية لهذا الزواج ، حين يعلن الزوج انه من أصل صحراوى ، ولأن ذلك يتفق مع ناموس القبيلة ، فإن رابحة تصير زوجة شرعية بمباركة من قبيلتها ، ويترك ابن عمها الساحة من اجل الزوج الصحراوى مثله ،

ومن المهم الوقوف عند صورة "عبلة" كما صورتها الأفلام العربية ، فهى ابنة السادة في قبيلة تنتمى الى ما قبل الاسلام ، وهى لا تحب عنترة الا بعد ان تكتشف شهامته ، حتى اذا عرفت انه ابن العم ، وتمكن الحب من قلبها ، صارت وفية له ، تقاوم اى محاولة لتزويجها من رجل آخر سواء كان هذا الآخر من كبار القوم ، أو سيد قبيلة ، قام باختطافها، وقد قدم نيازى مصطفي ، او صلاح ابوسيف قصة عبلة في أفلام عربية ، رأينا فيها نموذج ابنة الصحراء المدللة ، والتى عليها ايضاً إطاعة الاب في هدوء ، فهى امرأة عنيدة ، قوية الشخصية .

وفي هذا الأفلام ، تغلب شخصية الفارس عنترة على وجود الحبيبة عبلة ، لكن هذا الفارس المقدام الذى يبدو بالغ الشموخ والقوى امام خصومه ، فانه في حضرة عبلة يبدو بالغ الضعف ، والجيشان ،يبلغها هيامه ، ويتمنى منها التفاتة ، وهو يسعى الى أن يعترف شداد ببنوته من أجل أن يكون جديراً بالفتاة وأن يتزوجها .

ومن المهم الاشارة أن ممثلة مثل كوكا قد تخصصت في أدوار دور المرأة الصحراوية ، امتداد من "رابحة" ومروراً ب "عنتر وعبلة " عام ١٩٤٢ ، و"راوية" ١٩٤٦ ، و"سلطان الصحراء" ١٩٤٧ ، و"ليلى العامرية" ، و"مغامرات عنتر وعبلة" ١٩٤٨ . ثم "ظهور الاسلام" ، و"وهيبة ملكة الغجر" ١٩٥١ ، و"غرام بثينة" ، و"السيد البدوى" ١٩٥٣ ، و"الفارس الأسود" ١٩٥٤ ، و"سمراء سيناء" ١٩٥٩ ،و"عنتر بن شداد" ١٩٦١ ، و"بنت عنترة" ١٩٦٤ ،و"كنوز" ١٩٦٦ ،و"عنتر يغزو الصحراء" ١٩٦٩ ، و"اونكل زيزو حبيبى" ١٩٧٧ ، وهو كم من الأفلام لم تقدم ممثلة أخرى في تاريخ هذه السينما ، وقد تباينت أدوار المرأة هنا ،حيث انها في "الفارس الأسود" ترتدى زى الرجال من أجل الدفاع عن قبيلتها ، والفتاة هنا ابنة اثنين من البدو من قبيلتين قامت بقتل الوالد ظناً أن زواجهما غير شرعى ، وهى تقع في حب شيخ القبيلة ، وتسعى لمشاركتهم الدفاع عن أنفسهم ضد الاعداء ، لكن ابناء القبيلة يرفضون منها أى مساعدة ، مما يدفع بها إلى أن تتنكر في زى فارس ملثم بالسواد ينقذ القبيلة من الأعداء ببراعته وشجاعته ، وهذه الفتاة تتحمل الكثير من الظنون السيئة حولها ، حيث يتهمونها أنها على علاقة آثمة بالفارس الأسود، ولكنها في النهاية تكشف عن نفسها ، وتثبت للقبيلة براءة والديها .

وقد رأينا قصص حب صحراوية في أفلام أخرى مثل "العلمين" لعبد العليم خطاب ، وفيه فإن الحبيبة تدفع حياتها ثمناً للعلاقات السيئة مع عائلة حبيبها ، الذى ينتمى الى قبيلة حقيقية ، أما المرأة في "شمس

الزناتى" فهى ابنة الصحراء التى تعمل غازية ، في المدينة ، وتدفع بحبيبها إلى ستة رجال آخرين من أجل الدفاع عن قبيلتها ، ونحن هنا لسنا أمام قصة حب رومانسية ، باعتبار أن العلاقة بين المرأة الصحراوية وبين الزناتى تأخذ شكلاً حسياً وأنها امرأة أقل رومانسية ، وهى تعمل لكسب قوتها في المدينة الصغيرة التى تعيش فيها وحيدة .

ومن المهم الوقوف هنا عند شكل المرأة الغجرية ، والتى رغم أنها تعيش في الصحراء قد تحيا قصة حب في بعض الاحيان ، إلا أنها امرأة أكثر صلابة و وخشونة، ولعل هذا يعكس شغف السينما المصرية بقصص الغجريات ، فالكثيرات منهن شريرات في قصص الأفلام ، وسوف نتوقف هنا عند بعضهن ، في "سعاد الغجرية" ، نرى انا الفتاة ابنة مدينة ، وذات تربية غجرية، باعتبار ان غجر آسيا الصغرى قد سرقوا الفتاة وهى طفلة ، وجاءوا بها الى مصر سعياً وراء الرزق ، اى ان سعاد ليست غجرية بطبعها ، ولكنها تتصرف بناء على ما اكتسبته من اسلوب تربوى ، فهى تعمل في سيرك متنقل ، ولذا فهى محط انظار نخبة من المترددين على السيرك ، أحدهم بدوى ، والثانى شاب مستهتر يدعى سمعان ، اما الثالث ، فهو مصور يراها نموذجاً لرسومه ، والفيلم يدور في أجواء الغجر ، حول عاداتهم وسلوكهم وسط موازنة من الفتاة كى تختار الزوج الأمثل بين هؤلاء الذين يحوطونها ، فالمرأة هنا عقلانية في المقام الأول ، وتفتقد الى الرومانسية التى تعرفها بنات الصحراء ، خاصة في أفلام تلك الحقبة الزمنية .

والغجرية التى جسدتها هدى سلطان في أكثر من ثلاثة أفلام امرأة بلا جذور تقريباً تعيش بدون اسرة ، وتحب وتتزوج ، لكنها تسبب المتاعب من حولها ، او تكون هى نفسها ثمرة للمتاعب ، مثلما حدث في فيلم "حميدة" ، فالغجرية هنا تضرب الودع ، وتتخذه مهنة لكسب القوت و مثلما رأينا في عشرات الأفلام ، مثل الغجرية في "انت حبيبى" ليوسف شاهين عام ١٩٥٧ ، والغجرية تحب حميدو ، وتدافع عنه ، وتحمل عنه المخدرات التى يقوم بتهريبها حماية له من مطاردة الشرطة ، وتدفع له المال ، وتصادق أمه ولم تعرف لها جذور سوى أنها غجرية ، تدق وشم الغجر على وجهها ، وحميدو يستخدم هذه الفتاة لمصلحته ، ويؤدى منها وطره ، ثم يتخلى عنها ، حتى إذا لجأت إلى أمه ، طردتها في البداية ، ظناً منها أن ابنها هو رجل ورع ، وان الغجرية تلصق التهم بالأبن . ثم فيما بعد تكتشف الحقيقة ، ، فتقف بجانبها . وتروح الأم تقف ضد ابنها ، وتطلب منه أن يتزوج بالغجرية ، لكن ميدو يصحب الفتاة الى رحلة بحرية ، ويقوم بإلقائها في المياه ، لكن الغجرية لا تموت، وهى التى تساعد في التبليغ عن حميدو في النهاية . ومن الواضح أن صورة الغجرية في هذا الفيلم تختلف عن واقعها ، ويبدو هذا في الأسلوب الذى تعاملت به الأم عندما جاءتها تخبرها بما فعله ابنها ، أما الحقيقة فإننا أمام نموذج انسانى يتسم بشهامة وسمو أخلاقى فالمرأة تقف الى جوار حبيبها بكل ما تملكه من مشاعر ، وقوة .

وقد تغيرت صورة الغجرية في فيلم "امرأة في الطريق" لعز الدين ذو الفقار ١٩٥٩ ، وهى هنا لواحظ ، الغجرية التى جاءت من الصحراء ،

لا يعرف أحد جذورها ، تزوجت الأخ ، وعشقت شقيق زوجها ، يصورها الفيلم امرأة حسية ذات ماضى قذر استطاعت أن تخدع الزوج ، ليس فقط مع أخيه بل هى يمكنها ان تغش اى رجل في القرية ، وتلهب مشاعر الرجال في مكان ضيق ، يطل على الصحراء ، ومن المعروف ان صورة الغجرية هنا مقتبسة من الفيلم الأمريكى "صراع في الشمس" ، وان هذه المرأة قد تكرر ظهورها عديد من المرات بنفس الصورة .

ولواحظ تنجح في هدم أواصر الأسرة التى تعيش بينها ، وهى أسرة تحمل عوامل فنائها بين يديها . وتأتى هذه النهاية على الجميع بمن فيها الغجرية نفسها ، ويعكس هذا أنالسينما المصرية قد حاولت إلصاق كافة السمات السيئة للمرأة الحسية ، والشريرة بالغجرية .

أما الغجرية التى جسدتها هدى سلطان فكانت في فيلم بنفس الاسم أخرجه السيد زيادة عام ١٩٦٠ ونحن هنا أمام فتاة لا تحمل دماء غجرية ، بقدر ما تلقت اسلوبهم في التربية ، فهناك امرأة من الغجر تتردد على أسرة المحامى حسن وهذه الغجرية محرومة من الإنجاب ، لذا فإنها تسرق ابنة المحامى ، وخوفاً من المتاعب ، فإن المرأة السارقة ، وزوجها يعيدان فتاة أخرى الى المحامى ، وتتربى الابنة الحقيقية في أحضان الغجر ، فتحترف النشل ، ويدخل الفيلم في قصص متشابكة بالغة السخف ، لكن من المهم الاشارةإلى أن الغجرية امرأة سيئة ، فالأم التى اختطفت ابنة المحامى ، لم تعلم الفتاة سوى السرقة ، وضرب الودع ،

أما الغجرية الحقيقية ، فقد صارت مواطنة صالحة ، ويتمثل ذلك في صورة الابنة غير الحقيقية لها .

وقد تعددت حالات خطف البنات من الأسر الثرية ، وتربيتهم في أوكار الغجر في العديد من الأفلام ، مثلما رأينا في "وهيبة ملكة الغجر" لنيازى مصطفي ١٩٥١ ، فهناك رجل ثرى يطرد مجموعة من الغجر من الأرض التى كانوا يزرعونها ، فلا يجد هؤلاء الغجر إنتقام سوى خطف ابنته الصغيرة ، وعندما يخرج ابن صاحب الارض متخفياً ومعه صديقه للبحث عنها ، فانه يلتقى مع زعيمة الغجر الحسناء ، ويقع كل منهما في حب الآخر، وعندما يقرران الزواج يصطدمان بالعوائق الإجتماعية ، ويحاول الفيلم هنا ان يؤكد ان للغجر قلب للحب ، وأن وهيبة زعيمة الغجر يمكنها أن تغفر ، وأن تصير عاشقة ، وأنها ليست شريرة مثل الأب الذى سلب منه أرضهم التى كانوا يعيشون عليها .

وفي فيلم "الغجر" لابراهيم عفيفي ١٩٩٦ ، تكررت صورة الغجر كلصوص ، فالضبع يتزعم القبيلة التى تقوم بالسرقة والنهب ، وممنوع على النساء هنا الزواج من رجال من خارج القبيلة ، والمرأة الغجرية هنا تتحول من امرأة هامشية تمارس الخروج على القانون الى سيدة منتجة ، تسعى لتكوين مجتمع متحضر .

وسوف نتوقف عند شخصية الغجرية التعيسة عن "كارمن" أشهر غجرية مقتبسة عن الأدب العالمى في السينما المصرية ، اذا استثنينا

ازميرالدا في رواية "أحدب نوتردام" لفيكتور هوجو ، هذه الفتاة بدت في الاعمال الأدبية ، ثم في السينما المصرية فتاة حرة ، لا يمكن ان يربطها رابط ، أن تعيش على سجيتها ، تفعل ما تشاء ، تنام بلا أرق يطاردها ، وتلهب قلوب العشاق ، الإ انها عندما تود التخلص من أحد الذين احبوها بقتله ، وقد صورها بروسبير ميريمين في رواية فتاة طيبة السجية ، نقية ، وشقية ، خفيفة الظل ، لاتؤذى احداً ، ولا تعرف الشر ، فهى تذهب الى منقذها في سجنه وتحضر له الطعام ثم تطلب منه أن يزورها في منزلها لترد له الدين وتقول ببساطة : أنا في حل من وعدى ...

ونور في فيلم "امرأة بلاتين" لبركات اقرب الى كارمن عندما ترد الدين الذى عليها ، وهذا السلوك قد يكون مقنعاً عند البوهيميين في شمال اسبانيا ، لكن غريب على غجر مصر . تقوا نور لعبد الحميد في بداية الامر: "غرام آه . حب آه . لما اريد أنا .. لما يجينى مزاج .. يوم يومين.. شهر شهرين.. سنة سنتين" . وقد ارادت نور أن تكون حرة لكنها لم تستطع حتى النهاية التخلص من القيد الذى يربطها بالرجل: " القدر قال كلمة .. اصبحت رجلى . وهواك دمه جوايا " ثم تقول : " لو حاولت أن تقيدنى . فستقتل الود الذى بينى وبينك .. لكن الغيرة تستبد به ، خاصة حين تزور أدهم المهرب الكبير عدة مرات والذى يطلب منها أن تدفع ثمن تهريبه . ونور هنا تبدو أكثر التزاماً وارتباطاً بالرجل الذى تحبه وتورط بسببها . فهى تدفع أى ثمن من أجل انقاذه .. أنت مقدر ومكتوب على ، لاهو بيدك ولا بيدى" وعبد الحميد يضربها ، ويشك في سلوكها رغم موقفها الملتزم ..وتبدو نور أكثر سطحية من كارمن كما

صورها ميريمين ، فهى ترقص في الأفراح وبيوت المهربين وتساعدهم في عملياتهم، وتطلب من الخالة زبيدة أن تقرأ لها دائماً المجهول . وهذه الشخصية شيطانية كما صورت السينما المصرية الغجريات القريبات السمات من كارمن . فهى تغرى عبد الحميد الرقيب على ترك الخدمة . ثم على ان يتركها بعد أن كسرت فانوس السيارة ، ثم تحرضه على الهروب معها بعد أن تصور أنه قتل المهرب أبو دومة . أى أنها حولته الى قاتل بعد أن كان جندياً ملتزماً . فينضم فيما بعد إلى المهربين .

وتسعى نور الى تهريب حبيبها خارج البلاد بواسطة نقود تكسبها من عمليات جديدة في التهريب وليس من عملية شريفة . ونور ليست أمرأة منقطعة الجذور مثل أغلب الغجريات في السينما المصرية ، ولكنها تعيش وسط قبيلتها أحياناً ، لها خالة ترجع اليها عندما تود المشورة ، وهناك رئيس قبيلة الغجر الذى يسعى الى كسب ود نور ، والأقتراب منها.

وكما نرى فإن الغجرية في أغلب أفلام السينما المصرية ، هى امرأة ملتهبة المشاعر الحسية ، أو الرومانسية ، لكنها ذات جسد شهوانى ، رغبات مثيرة، يحوم الرجال حولها ، وغالباً ما تكون نهايتها مأساوية ، وقليلة هى الأفلام التى تعاطفنا فيها مع هذه المرأة ، وهى ابنة بيئتها ، بإعتبار أنالبيئة هنا شديدة القسوة ، وتنعكس قسوتها بالتالى على بناتها ، وكما رأينا فإنه رغم وحدة البيئة فإن هناك هوة واسعة في سمات وقصص

كل من المرأة الصحراوية التى تقيم في الصحراء ، وبين الغجرية التى تعيش بلا أرض ، و لا جذور تشدها اليها .

الفهرس